

أهلاً  
دي إلهيه  
ع فاك أمنا تبارك  
شمال... يمين... مقالعه

سمير الفيل  
٢٠٠٥/٥/٢٠

سمير الفيل

قصص قصيرة



الهيئة العامة لقصور الثقافة  
إقليم شرق الدلتا الثقافي

إبداعات شرق الدلتا

رئيس مجلس إدارة إبداعات شرق الدلتا  
الشاعر/ مصطفى السعدني  
رئيس الإدارة المركزية لإقليم شرق الدلتا

رئيس التحرير  
إبراهيم جاد الله

سكرتير التحرير  
إسماعيل حسن سالم

المسؤول المالي والإداري  
علاء الدين عبد الحليم

الإخراج الفني والغلاف  
الفنان/ أحمد الجنائني



## إهداء

إلى سمير عبد الفتاح  
محمود المنسي  
عصام الفايز  
معصوم مرزوق  
د . السيد نجم  
محمود الورداني

بالتأكيد .. زحفوا الرمال في السادسة صباحاً ، مثلي .

وإلى عبد الله خيرت  
د . عبد القادر القط  
د . ألفت الروبي  
شمس الدين موسى  
سيد عبد الخالق  
مجدي الجابري  
مجدي حسنين  
أسامة الدناصوري

رحلوا قبل أن يقرأوا هذه الحكايات ،

سمير الفيل



" لا يوجد في أرض الله الواسعة شعب أسلس طبعاً من أبناء  
الفرعون هؤلاء .

فالمصري يحتفظ بدمائة طبعه تحت ثيابه العسكرية ،  
وتظهر حضارته المتأصلة إذا ما قورن بالعسكري العثماني ،  
ذلك الجلف الجافي ، الذي يفاجئك هو وضباطه بفضايلهم ،  
على حين أن المصري يحتفظ ، مجنّداً ، بهدوء سريره ،  
وكرم طبعه ، وسماحة سجاياه "

شارل ديدييه - ليالي القاهرة  
ط - باريس - ١٨٦٠ م

[ مصدر : سندباد المصري / حسين فوزي ]

Λ

## بروجي للتحية

في خريف سنة ١٩٧٤ ، استدعى فرز " الزقازيق " فتى  
نحيفاً كزعزوعة القصب ، أسمر ، ضعيف البنية ، بنظارة  
طبية لا يشوف بدونها ، إلى الخدمة العسكرية .

حلقوا له رأس الشعر نمرة واحد ، ثم صرفوا له مهمات  
العسكري المستجد ، بعد أن عرضوه على السرية الطبية ،  
فجسوه ، وقلبوا فيه ، ورأوا أنه " صاغ سليم " .  
ثم أرسلوه إلى تجنيد " الزيتون " ليتأكد الأمر ، حيث  
أن وجود نظارة أفلقت الرائد الأصل ، الذي رفع الأمر عن  
كاهله ، وتكرر : الجس ، والتقليب ، والتذنيب !!  
وجد الفتى نفسه رقماً مدقوقاً على رقعة صاج ، لا بد  
أن يحفظه ، انخرط في طوابير التمام والتدريب حتى أتقن كل  
شيء .

ولم تمض سوى أسابيع قلائل حتى وجد نفسه في  
كتيبة مقاتلة ، عليها حراسة الوطن ، وفوق ذلك تزييف  
الرمال كل صباح بالمشمع ، مع نوبات الكينجي ، وطوابير  
التكدير بالملابس الداخلية .

مع أولاد ناس من بحري وقبلي ، أدرك أن الدنيا واسعة  
وعميقة كالمحيط ، لكنها في الوقت نفسه ضيقة كثقب إبرة  
. عرف أن البشر فيهم الصالح والطالح . منهم معادن نادرة

كالتبر الثمين ، ومنهم الفالصو الذي لا يساوي مليماً .  
في خريف سنة ٢٠٠٣ ، انكشفت له رؤيا : أن الصول  
عبد الخالق يضرب بروجي ، ويستدعيه كي يحكي عن أيام  
الجندي الأولى .  
حكايات ومواعظ لعساكر غلبة كانوا يجادلون  
الزمن الصعب والخدمة الإجبارية بسلامة طوية وعشق أكيد  
للحياة .  
إلى هؤلاء الجنود الذي مضى على خدمتهم أكثر من  
٢٩ سنة أهدي هذه الحكايات ، وإلى كل العساكر  
المستجدين ..  
اضحكوا من قلوبكم على أيامنا الصعبة ، ففيها -  
أيضاً .. صفاء نادر ، وخشونة بكر ، وشيء من حكمة  
الزمن !

## القسم الأول

### بعض ما جرى في الأساس



## قايش وسط

العسكري صبري الأرنؤطي استلم أفروله الكاكي الجديد ،  
وفردتي البيادة ، وخرج من الصف الطويل الذي أكلته الشمس ، كأنه  
في يوم عيد . ولم لا وهو الفلاح القراري الذي ما حط على جسده إلا  
جلباب الصيف ، وكسوة الشتاء ؟  
يجعل خالته فاطمة تحيكها على ماكينة الخياطة كيفما اتفق ،  
ثم ينقدها جزءاً من أجرها ، والباقي يأتي وقت الفرج ، الذي لا يزور  
قريتهم أبداً .  
هو الآن جندي عادة ، يحفظ رقمه العسكري عن ظهر قلب ،  
وحين يصرخ فيه الشاويش " صفا " يضرب قدمه اليسرى في الأرض ،  
كأنها بريمة يدقها كي تخرج بترولاً ، والبترول هو الجاز : عرف ذلك  
بعد أن سأل صاحبه عبد المتجلي وقت الراحة .  
اليوم سيكون جندياً بحق وحقيق ، وحين ينزل أجازته الشهرية ،  
سيسير في أزقة القرية بمشية عسكرية تهز أشجار الجوافة والليمون على  
الجانبين .  
أحلى ما في الخدمة هو ذلك الزهو الذي لا شك أنه قد شعر به وهو  
ينطق اسمه مضيقاً إليه الرقم الصعب الذي حفظه بمشقة ، والرقم  
الكودي للكتيبة .  
بعد ذلك يكون كل شيء سهلاً ، والتكرار يعلم الشطار ، وهو

شاطر ، أروب ، يعرف كيف يبدل الخطوة ، بضرب مقدم القدم اليمنى في كعب اليسرى عند أقل خطأ ، ليعود لمشيته المنتظمة : واحد . . اثنين . . واحد . . اثنين .

وقد حاول فترة الاستراحة أن يكررها ، حتى أتقنها ، لكن أفروله العسكري كان قديماً ، أخضره من كشك خشبي أسفل كوبري المشاة الملاصق لمحطة السكة الحديد .

اليوم يمكنه أن يرتدي أفرولاً جديداً ، بشوكتة ، وهي اللحظة التي عاش ينتظرها ، خاصة وأن الأجازة قد أوشكت على الاقتراب .

خرج من الصف مسرعاً ، وفي الخيمة المنصوبة في صحراء المعادي حيث تدريب " أساس ٢ " ، مرق إلى الداخل ، كعاد يندق عنقه حين اصطدمت ساقه بالوتد الحديدي اللعين ، زفر في تعب ، وهو يلهث . دخل حيث فرد مشمعه الميري بلونه البني الذي تحول مع نوبات التزحيف إلى لون التراب الأخرص .

ارتدى السترة ، راح يزررها بيد مرتجفة ، كان يخب فيها كأنها ابتلعتة . سرى عن نفسه أن البنطلون سيعدل الأمور : سيعدها ، لا شك في ذلك .

خلع البيادة بصعوبة بالغة ، كان يربطها ثمانيات وسبعيات حسب الأوامر المشددة ، رفع قدمه اليمنى ، أدخل رجل البنطلون ، استند بكفه على عامود الخيمة ، فلسعته سخونته فقد كانت الظهيرة . وشمس المعادي تبغ الصهد ولا ترحم . رفع قدمه اليسرى ، وأدخل الرجل الأخرى . بكل ما أوتي من قوة خطف البنطلون خطفاً لأعلى ، وأدخل السترة ، وجرى إلى المرأة المهتزة بعنف على خلفية مدخل الخيمة . شعر بوسامته . عسكري بجد . ولد مجدع شارب من بز أمه . صاح فيمن حوله : إيه رأيكم ؟ كان كل من استلم مهامه في شغل شاغل عنه ، حتى أن أحداً لم يرد على سؤاله . بالكاد سمع همهمة : تمام . لكن البنطلون انسلت ، وشعر بالخزي والكلسون فيه قطع كبير يكاد يبين لحمه . رفع البنطلون ثانية ، وضم الحجر بما قيمته قبضتين ونصف . لا

توجد معه مهمات خياطة ، لا إبرة ولا خيط . هرش رأسه ، وأدخل رأسه في مخلته يبحث عن حبل التيل المبروم ، لقد أذخره ليوم أسود .  
وها هو اليوم الأسود قد أتى مسرعاً ، وشمس المعادي لا ترحم أبداً ،  
قاسية مثل قلوب الصولات ، غليظة كأوامر الباشجاويشية ، وهو دائماً  
ما يدير في عقله العبارة الأبدية التي حُفرت في عقله كأنها موعظة لا تقدر  
بثمن : " الجيش يقولك تصرف " .

أمسك بالحبل فرحاً ، وقد أدرك أنه قد عثر أخيراً على الحل الأمثل .  
مرر الحبل من اليمين إلى اليسار أعلى "البتلة" شد بكل ما أوتي من عزم .  
استقر البنطلون على جسده الهزيل المضروب بالبلهارسيا في إحكام .  
كان من حوله العساكر المستجدين يجربون أفرولاتهم مثله ،  
لكن أغلبهم ارتدى قميصاً وبنطلوناً من قبل . شعر أنه يطوي تلك الفترة  
من حياته . وداعاً للجلباب الذي ربطه بالقرية والغيط والساقية .  
من اليوم هو الجندي المجند صبري الأرناؤطي على سن ورمح ،  
وليضرب من يعترض رأسه في أقرب حائط . سيختفي من حياته ذلك الظلم  
الذي عاناه في أيام الفرز الأولي .

كان الأومباشي دائماً ما يختار أصحاب الجلابيب لجمع الأوراق  
المهملة من الساحة الواسعة . الآن هو مثلهم . فقط يختلف اختلافاً طفيفاً لا  
يكاد يبين بالمسحة الصفراء التي تسري تحت الجلد ولا تظهر إلا لمن يدقق

سمع صفارة طويلة ، أدرك أن وقت الجمع في طوابير الاصطفاف قد  
بدأ . أدخل قدميه في البيادة بسرعة ، وأعاد ربط سبعات وثمانيات ، التي  
أتقنها تماماً .

وقف أول الصف شامخاً برأسه ، والطاقيّة الكاكية في وضعها  
السليم . فقط الحبل مشدود شداً يؤلمه . مر الأومباشي متفقد الصنفوف .  
حملق في زي صبري عبد العظيم الأرناؤطي ، صرخ فيه أن يتقدم خطوتين  
: أيه اللي انت عامله يا عسكري ؟ أنت جاموسة رابطينك بسلبية ؟  
وهاج أكثر : إجري بسرعة هات قايش الوسط .

اختلط الأمر على صبري ، هز رأسه بعدم فهم حقيقي ، خرجت

الكلمات بصعوبة : قايش . . آيه ٩  
رد الأومباشي : قايش الوسط . ولا تكونش فاكرا صارفينه لك  
علشان تتحزم به ، وترقص ؟  
ضح الطابور بالضحك ، وهو ما لم يكن مسموحاً به . وقد أمر  
الأومباشي بإحضار كل عسكري للمخلة ، ورفعها لأعلى والجري بها في  
عز نقحة الشمس على شرف العسكري صبري الذي لا يعرف قايش  
الوسط .  
واستسلم العساكر للأوامر ، وبدأ طابور الذنب والشمس كانت  
ما تزال تشوي الأجساد ، وتؤكد لصبري أن ربه لم يرض عنه بعد ، ربما  
لذنب قديم ، فعله ونسأه .

## يوم الرقص

العسكري فريد الأهيل فعلها . ظل يخزن في صدره كالجمل ، ثم  
نط في بطن الأومباشى عويضة ، لوى زراعته ، أوقعه أرضاً ، وذلك لأنه  
ظل يسخر منه على مدار أسبوع كامل ، منادياً إياه : يا عسكري يا نمرة !  
والعسكري النمرة جثم على صدر عويضة ، ولكمه في صدغيه  
لكمات متوالية ، وغشي الموقع سكينه ، وصمت لم نعتده . وسرعان ما  
تخلص الأومباشي من وقع المفاجأة ، وبادل فريد الضرب ، وتأكدنا أنه –  
أي الأهيل – يترك له مساحة مناسبة للطم وانشاب الأظافر في رقبته حتى  
صار تخطوطاً حمراء متعرجة ، فلما تيقن أن العلامات الحمراء لن تُمحى  
بسهولة عاود لكماته ، ثم فراقها ، وركله وهو يصيح : ابن كلب .  
بتناقل قام الأومباشى ونفض ملابسه ، وراح يعدل من وضع أفروله  
، وسرعان ما رأينا سرسوب الدم يتسلل من أنفه تجاه الشفتين .  
أسرع عسكري سمين يقذف منديل الكاكي ، تلقفه ، ومسح  
الدم الأحمر القاني ، نظر بكل غل : سأريك .  
تحلقنا حول المتخاصمين المتضاربين ، وقتلنا إن الصلح خير ، وعفى  
الله عما سلف .  
أشار الأومباشى بحسم : كل هؤلاء سيشهدون .  
قلنا جميعاً : لم نر شيئاً .  
وقال لطفي فرو بخبث شديد : سأشهد بما رأيت . أنت بدأت  
بضربه .

ضرب الأومباشي عويضة صدره بيده : أنا ١٩

نظر إليه لطفى فرو ، وضيق ما بين عينيه ، وهو القصير المكبر ،  
وصاحب عاهة ، وكل ذي عاهة جبار ، أما في الجيش فكل ذي عاهة  
أمير الجبابرة . لذلك كان يسيراً عليه أن يتجه لسترة العسكري فريد ،  
ويعزقها أمامنا ، فتتطاير الأزرار . هنا هتف بصوت عالي : تمزق ملا بسه  
، وتضربه ، وتريد منه السكوت .

قلنا جميعاً في تشف - ونحن الذين شعبنا سخرية من هذا  
الأومباشي اللعين - وقد علا صوتنا أكثر : سنشهد أنك مزقت ملابسك .  
عندئذ تقدم ملاك حنا ، ومسح بيده العارية خيط الدم ، وهتف  
بالأومباشي : أنت زودتها وكما تدين تدان . كلنا يد واحدة . يا نمره !  
نظر الأومباشي إلى السحب الرمادية المتكاسلة التي كانت تمر في  
سما صحرَاء المعادي ، وكانت تضيء على المكان حزناً وغموضاً لا نهاية  
له ، مسح المكان : الكلاب البعيدة التي لا تكف عن النباح ، وأشجار  
الصبار القزمية ، وأعمدة الحديد التي تحمل الأسلاك الشائكة . قال في  
صوت مهزوم : سأبلغ مكتباً ، وسأحبسكم جميعاً .  
كاد ملاك يفتك به ، وكانت نوبة الراجة على وشك الانتهاء .  
زغده في جنبه : وشرف أمي أفضحك . يا أبو علقه .

ضج الموقع بالضحك ، والعسكري فريد أمسك بعامود تشتين  
طويل وراح يرقص في دائرة هو مركزها ، وقد انفتحت السترة حتى بطنه  
، وأطلت فائلته الداخلية التي طالها التمزيق وهو يغني :  
" يا حلو أنت ، يا بُعاشة . . .

تعالى . شوف الأومباشي "

وحنا بقبضته التي تشبه المطرقة ، يضرب على صدره المنتفخ ،  
وترن الطبلية البشرية ، وما لبث أن أجبر الأومباشي على الرقص معه قسراً .  
في البداية ثبت قدميه في الأرض الرملية ، لكنه بعد دقائق تحرك  
، ووجهه الممتنع تعلوه غيرة . الجميع يرد على فريد الأهل " يا باشا " إلاه .  
وعلى صوت الطبل والدق ، والتصفيق المتواصل جاء أفراد من  
فصائل أخرى ، كان أغلبهم في غلب لا يوصف بسبب مفارقة الأهل

والخلان ، فدخلوا الدائرة ، ورقصوا . لم ير أحد من هؤلاء العساكر بداية اللطم والضرب ، وخيط الدم . فقط انخرطوا في الرقص والغناء .  
واتسعت الدائرة ، حتى أصحاب الرزاة والوقار شاركوا في التوقيع  
بأكفهم الغليظة . بشق الأنفس عثر العسكري يحيى على قطعة حرير  
حمراء ، لعلها في الأصل إيشارب لبنت يحبها ، وحزم الأومباشى الذي لم  
يجد مفراً من الاستسلام لغواية الرقص ، وتغيرت النغمة ، بإيقاع محموم .  
" يا حلو أنت ، يا بُغاشة .. "

تعالى ، بوس الأومباشى  
وتحول الوجه الممتنع إلى صفاء مدهش ، والأومباشى يرقص هذه  
المرّة بجد ، ورمضان يراقصه في ثنائية لا توصف من الانسجام والمودة .  
في تلك الأثناء دخل العسكري لطفي فرو ، وأحضر سترة جديدة ،  
ألبسها رمضان بصعوبة وهو يرقص ، بعد أن انتزع سترته الممزقة .  
وعلى حين غرة ، دوت صفارة الجمع ، وتوقف العساكر عن  
الرقص لنهايتها ، ثم استعدوا للانسحاب بهدوء . غير أن ملاك حنا المفتري ،  
صاحب القبضه مثل المطرقة صرخ فينا : ساعة الحظ لا تعوض . هيا  
نكمل .

واستمر الرقص ساخناً ، وكانت البيادات تدبب في انتظام غريب  
. لم نشعر بالرائد سلامة عسل إلا وهو فوق رؤوسنا يشغلنا بصوت  
هادر : كله حبس خميس وجمعة .. يا نمر !!  
قالها وذهب ، ولم يتوقف الرقص ، والوحيد الذي حُصم من راتبه  
يومان كان الأومباشى عويضة . وقد جمعنا له من نقودنا القليلة ضعف ما  
حُصم . فرد المبلغ بحسم ، وقال لنا بعد الواقعة بأسبوعين : لقد كسبت  
أكثر . ولم نفهم !!

# الظل

كل شيء في الدنيا له ظل . وللظل تحولات لا تخطئ العين رؤيتها .  
الظل ملازم للأجساد ، المباني ، الأشجار ، الحيوانات الأليفة والنافرة .  
لا بد من وجود شمس كي يتكون الظل ، ربما قال قائل : إن  
التيار الكهربائي حين يسري في أسلاك المصابيح يتولد الضوء ، ويوجد  
الظل . هذا ما نعرفه ، لكننا نتحدث عن الظل الأصلي ، الطبيعي ، الذي  
يتولد من النور الرياني ، سواء مع بزوغ شمس ، أو إطلالة قمر .  
كل هذه الأشياء يعرفها عساكر الأساس ، وهم ينزفون في  
الأركان ، تحت ظلال الجدران البعيدة للكانتين ، أو ظلال الخيام حيث  
يمتنع بتاتا على الأفراد دخول حرم الخيام إلا في أوقات الراحة ، أما فترة  
الطواير الممتدة من السادسة صباحاً ، وحتى الثانية ظهراً ، فمن المستحيل  
الدخول إلا للمرضى ومن يحملون " أرانيك " عيادة ، وفيها عبارة صريحة  
بالقلم الأحمر " معافاة من الخدمة والطواير " ، وهو أمر نادر الحدوث .  
فحتى هؤلاء يتم مطاردتهم ، وأسرههم بكل معنى الكلمة ، حيث  
يؤخذون إلى المطبخ الميري لتقشير البطاطس ، وتقطيع البصل ، وعصر  
الطماطم ، وحمل " الأروانات " العملاقة ، وهي مسائل مهلكة للبدن  
والأعصاب .  
الظل هو غاية كل مجند ، خاصة في أشهر الصيف العنيدة ،  
بالتحديد يونيو ، ويوليو ، وأغسطس . وهو الثلاثي الذي يكرهه كل  
عسكري من قلبه . فالشمس في صحراء المعادي تهبط لتلامس بشظاياها

رؤوس الأفراد . وحتى الكلاب في عز الصهد تختفي ولا تظهر إلا في وقت معلوم - بين الثانية والنصف والثالثة ظهراً - حيث يقترب موعد توزيع التعيين . فتظفر بقطع عظام ، ويقايا جراحية ، وقليل من اليمك ، إن كانت هناك وشائج صداقة قوية بينها وبين فرد في عقله خلل ، بحيث يتنازل عن جزء من نصيبه ، وقوته الضروري لكلب ضال ، في الغالب أجرب ، هزيل ، ضامر الجرم ، وهذا ما كان من الأمر العسكري " توفيق أبو شعرة " .

الظل يخشى افتضاح أمره ، ففي الثانية عشر تماماً يقصر ويتلاشى فلا تعثر على أثر له ، قبل أن يعود ، فيمتد باتجاه ثكنات القائد ، والضباط .

هؤلاء لا يشغلهم الظل في شيء ، فلديهم أسلاك ممدودة ، تتصل بمراوح بعضها معلق في الأسقف ، وبعضها على حامل . وأنت إن أحببت أن تجد ظلاً مناسباً فعليك بالدفع ، حيث يسمح لك عسكري الكانتين أن تجلس إلى جوار الجدار الخشبي السميك مقابل سيجارة أو سيجارتين ، وفي أوقات القحط الرهيب يكتفي بنفسين ودعوة مفادها العودة سالماً غانماً لأهلك .

وفي الظل إغواء للجسد بالراحة ، وتخليص للروح المتعبة من أوجاعها ، ونحن هنا نتحدث عن شمس الصيف تحديداً ، وهو الموعد المناسب دائماً لتجديد دفعات جديدة من العادة والمؤهلات على السواء . ويقدر تنازلك عن جزء من الظل يخلصك يكون مقدار أصالتك ومثانة صداقتك لأي زميل ، وحين اكتشفنا بعد أسبوع كامل من البحث المضني عن ظل شجرة كافور وحيدة هائلة تقع في الركن الأيسر لمطبخ المعسكر ، رحنا نتسلل إليها ونحتلها ، دون أن نجسر لحظة على البوح بسرنا الدفين .

فيإذا سألنا زميل - نحن المكتشفين لظل الكافورة الوارف ، البهيج - نتعلل بالذهاب إلى "الأدبخانة" أو " السرية الصحية " ولذلك بقي السر فترة طويلة حتى تم اكتشافه من الجميع ، وحدثت الجلبة أثر الازدحام ، وعلق القائد لافتة عليها بخط أسود عريض " ممنوع الجلوس " .

الظل قرين الهدوء ، هو في الأصل تقيض النور ، لكنه لا يدحضه ، أنه يشاركه المكان ، ولا يسعى لإزاحته ، يتداولان - عبر الزمان القصير- الكر والفر ، إلى أن يدخل الليل فيختفي هذا وذاك : الظل والنور .

واليوم حدث في الطابور ما عكر صفونا جميعاً ، إذ أن العسكري صبري الأرناؤطي تخابث أثناء توزيع تعيين الفصيصة الثالثة ، وأخفى في كيس من البلاستيك قطعتين من اللحم ، ولما تم التوزيع على الأروانات الفردية ، اكتشفنا العجز ، وراح صبري يقسم أن العجز على مستوى المعسكر كله . بينما هو يوالي قسمه المغلظ ، برز طرف الكيس من عيه ، فامتدت يد ملاك حنا الفليضة إلى صدر العسكري ، وسحب الكيس ، وبكى صبري ، رضى لأي جزاء توقعه عليه إلا أن نبليغ الأومباشى عويضة ، أو الصول عبد الخالق ، فقد كان يخشاهما كثيراً

قال ملاك بغضب : هل ترضى بحكمي ؟  
رد على الفور ، وكأنه غريق قد تعلق بقشة : أرضى ..  
فاقترب منه ملاك ودعك أذنيه حتى احمرتا ، وكاد الدم ينبثق منهما .

قال لنا في خشونة نعرفها : غداء هذا العسكري اليوم جارية حاف .  
وافقناه ، لكنه أضاف في خبث ، وقد وقع صبري في يد من لا يرحم : بعد الغداء سألقنه درساً لن ينساه .

جلسنا في دائرة صغيرة ، نهجم بشهية على طعام الغداء ، كان الطبخة السوداء - أي الباذنجان الرومي - وقطعة صغيرة من اللحم بعد أن حرمتنا العسكري صبري من نصيبه . وقد أحس بالذنب ، فألقى بقرقش طرف الرغبة بأسنانه ولم يهن علينا أن نتركه على هذه الحال ، فقد تفاضنا عن خطئه ، ومد سراج يده بقطعة لحم ، وحفنة يملك .  
وبعد أن انتهينا ، مرت علينا قطعة ، رأيناها تعود في الساحة الخالية .  
هنا التفت ملاك حنا إلى العسكري صبري المغضوب عليه ، وأمره بإحضار ظل القطعة ، وإلا سيشتي بفعلته .

وهنا انطلق صبري كطلقة رصاص نحو الهدف ، وراح يعدو مطارداً  
ظل القطة ، وكلما مرقت من بين يديه ، أعاد المحاولة ، وكان يقبض  
على الظل المراوغ ، ويكاد ينشب أظافره في الأرض قابضاً عليه دون  
جدوى .

ولما عاد إلينا خائباً ، خالي الوفاض ، منكسراً ، معترفاً بالذنب  
صرخ فيه ملاك : أين ظل القطة ؟

علا صدر العسكري صبري وهبط ، كانت أنفاسه متقطعة :  
مقدرتش أمسك الظل . . . يا أفندم .

خبطه ملاك حنا في ود ، ووسع له إلى جواره ، وجعله يقسم على  
المصحف - وكان باستمرار في جيب سترة سراج الأيمن - ألا يفعلها ثانية  
، وقد أوفى الرجل بوعده طيلة فترة الأساس .

## التزحيف

نحن في الأساس .والأساس ٤٥ يوماً ، لا تزيد ولا تنقص .تستلم مهماتك ، تحمل المخلّة ، تتحول من فرد مدني عادي ، إلى عسكري لا يتحرك إلا بالأوامر .

والجيش متاهة .الداخل فيها مفقود ، والخارج مولود . من كل جنس ولون ، وهيئة وشكل ستجد البشر : حانقين ، سعداء ، ممرورين ، لاهين ، عديمين ، متفائلين . من النقيض إلى النقيض . لكن الزمن ممتلئ بأمثال هؤلاء وهؤلاء . كل شيء كان يتوقعه خليفة مرسى الشموطي إلا موضوع التزحيف.

لقد بحث له عن سبب أو علة دون أي فائدة . فما الدافع الذي يجعل عساكر الأساس يقومون من النجمة ، وقبل شروق الشمس ، ليفسلوا وجوههم بما تيسر من ماء الجراكن ، قبل أن يخرجوا مشمعاتهم المتينة ، بلونها البني الغامق ، وتيلها المنسوج راقيات ، يثبتون الطرف بقطع الزلط والحجارة ، ثم يمسكون الطرف الآخر ، ويمضون لتسوية أرض الميدان الواسع الذي لا نهاية له . من مريط خيام الأفراد ، وحتى السور البعيد البعيد الذي تعرفه الكلاب ، فلا تتجاوزه إلا بنباحها الواهن .

هناك عدة طرق للتزحيف ، أبسطها أن يُحدد لكل فرد مقطوعة يسويها بمعرفته ، ويتحمل خطأ وجود أي مساحة فيها نتوءات أو تعرجات . هذا هو الشائع والمعمول به في أساس ٢ ، ٤ .

لكن هناك معسكرات تدريب أخرى تأخذ بنظرية "الجشتالت" فتقوم كل سرية بالترحيف الجماعي ، فكأنك في حضرة رتل من سيارات الميدان تمضي في ذات الاتجاه ، وينفخ السرعة ، دون أن تترك بوصة فراغ واحدة .

كل شيء مقبول ، ومعقول ، ومحسوب في ذهن خليفة إلا هذا الأمر ، وهو يسأل كل من يقابله في صوت هامس خشية التبليغ عنه من أي واحد ابن حرام : أريد أن أعرف ضرورة الترحيف ؟  
ظل يسأل ، ولا أحد منا يجاوبه ، ويضع له العقل في رأسه فليس من المعقول أن نسأل في كل كبيرة وصغيرة . هناك في العسكرية تكتيكات واستراتيجيات ، وما نحن إلا عساكر بلا ظهر أو سند . بل الغريب أن يصدر مثل هذا السؤال عن خليفة بالذات ، وأبوه كما علمنا منه يصلح الأحذية عند أبواب جامع السيد البدوي . يضع السندان على الأرض ويبدأ عمله قبل الظهيرة كل يوم وحتى يشطب آخر فردتين ، وكله برزقه .

مرسي الأب - والله أعلم - عود ابنه على التلصص على الحديث ، والسؤال عن كل أمر ، من طقطق إلى السلام عليكم .  
ربما كان لحواح في مسألة الترحيف ، أما أن يحولها إلى قضية عمره ، فهذا معناه أن دماغه " جزمة " قديمة .

وهذا ما حدث له من جراء اللت والعجن في موضوع مفروغ منه . فقد حوله الأومباشي إلى الصول ، لما سأل الصول عن السبب . أشار الخبيث إلى العسكري المستجد الذي لم يكن له خبرة بأمور الدهاء :  
أسأل عن الترحيف . لماذا نقوم به ؟

والصول عرفة أبو غزالة الداهية وجدها فرصة للتنكيل بنا جميعاً ، بأن يوقع الأذية بهذا الأبله ابن " الصرماتي " .  
والمثل قال : " اضرب المربوط ، يخاف السايب " . ولكن للأسف كلنا مربوطون من أعناقنا منذ اليوم الذي دخلنا فيه منطقة الفرز ، وجردونا من الثياب إلا ما يستر العورة ، وبحثوا عن الفتق والبواسير والسل و.....

عندما انتهوا ، وختموا الورق بالكودي الأسود بكلمة " صاغ " صرنا لا نسأل ، ولا نجرؤ على رفع الحنجرة بصوت حتى لو كان واهناً . الضابط أنور - وهو ضابط مخلة ، لا قلب له - ربت على كتف العسكري الغلبان ، وسهاه في الكلام : خير يا دفعة ٩ ، ابتسم الغر ، وبانت نواجذه : فقط ، أسأل عن التزحيف . هل كل جيوش العالم تزحف مثلاً ؟

الضابط أنور ، تركه ، وراح يقلب السكر في قعر كوب الشاي ، وعاد إلى مكتبه في وسط الخيمة ، وقد أدرك أن الفأر قد وقع في المصيدة . شجعه على الكلام أكثر ، فأضاف ابن مرسى الشموطي : التزحيف تضيق وقت . أريد أن يصل صوتي للقيادة . لسان حال الضابط : اللهم طولك، يا روح .

لكنه يطلب المزيد من الكلام السائب ، ربت على كتفه بتشجيع مكرر :

قل كل ما عندك . . يا عسكري . وضع الكوب على حافة المكتب - وهو منضدة ملغلة قوائمها ، أما سطحها فمن خشب جميل مسوس - وسوى أطراف شاربه ، وأمر بطابور ذنب ٨ ، ٩ . وقبل أن ينصرف ، وخزه في صدره : ها . . أتريد أن تعدل الكون . . يا روح أمك !

ربما فكر في صفعه ، لكنه تراجع ، وقرر حرمانه من الإجازة الشهرية ، وخدمتين " كينجي " زيادة .

وحين رجع العسكري خليفة ، بان عليه الإرهاق بعد دورانه في ساحة التدريب حاملاً المخلاة ، والعرق يشر منه ، وهو يلهث وصوته يطلع بصعوبة : لن يقتني أحد بأن التزحيف ضروري ، حتى لو قصفوا عمري . وفي الخيط الأول من فجر اليوم التالي ، كنا نزحف رمال الموقع بهمة أقل ، وكان العسكري خليفة يشاركنا الأمر متعباً ، موجوع القلب ، فقد قضى نوبة الكينجي وهو يكلم نفسه : التزحيف خطأ . كان أغلبنا يرى الأمر نفسه ، ولم يكن أحدنا على استعداد لذلك

العقاب الصارم ، فالجيش له عبرة حفظناها مراراً وتكراراً : " نفذ الأمر ولو خطأ " .

ولقد رأينا مصير من جرؤ على مناقشة الأمر ، فما بالك لو رفضه .  
استمر التزحيف ، وحين سويتنا الأرض ومهدناها ، هبت عاصفة صغيرة ، فمسحت كل ما فعلناه . ضحك العسكري خليفة وهو يشير إلينا بيده : زحف يا عسكري ولو خطأ ..  
كانت ضحكته منقوعة بمرارة وحزن بلا حدود .

## ياقات حمراء

عرفنا أنه ابن ناس من أول وهلة . بنظراته الواثقة ، ووجهه الخمرى  
المستدير الذى لم تلوحه شمس بعد ، وبتلك الابتسامة العريضة التى استقبل  
بها خبر توزيعه على سلاح المشاة .

كنا على ثقة أنه لا يكذب علينا - فى نويات الراحة - حين يحدثنا  
عن أعمام له ، وأحوال يحملون رتبة اللواء أو العميد ، ويمكنهم بإشارة  
إصبع أن يوزعوه على أسلحة الخدمات التى لا مشقة فيها ولا تعب .  
تأكدنا أن سراج مصطفى ، والذى سيصبح فى الأيام التالية  
مهامى المعسكر له مخ مختلف . لقد أراد أن يخدم بجد ، ورغم بكاء الأم  
، وتوسلات الأب بالتوسط له عند أصحاب الأمر والنهى كي يتم توزيعه  
فى وحدة مناسبة إلا أنه رفض رفضاً تاماً .

وها هو بيننا ، واحد منا وعلينا ، يضع يده فى جيب سترته فتبرز  
علبة سجائر " الكنت " ، يعزم علينا عزومة مراكبية ، ويشعل سيجارته  
بكل ترفع وكبرياء .

وسراج مصطفى القرائلى ، ابن الناس ، أخذ فى أول يوم خدمة  
درساً لن ينساه ، عندما سأله الأومباشى عويضة عن مؤهله ، فرد بثقة  
بانت فى نبرات صوته : ليسانس حقوق . . يا أفندم .

لحظتها ارتبك الأومباشى ، لعلها ثوان قليلة ، وانطلق كالمدفع  
المتريوز " مهاجماً المعسكرى المستجد : عليك أن تدفن شهادتك هذه فى  
أقرب حفرة . وانس الليسانس ، وإلا ستعيب .

وجعله يتحرك خطوة للأمام ، ويقلع طاقيه الرأس ، ويختبر صلابته

بأن ضربه في كتفه ضربتين قويتين ، وسأله على الفور : بماذا شعرت ؟ ،  
على الفور رد المحامي سراج : لا شيء يا أفندم .  
وقبل أن يكمل جملته جاءتة اللكمة في بطنه مفاجئة ، قوية ،  
ولقد حاول العسكري المستجد امتصاص الصدمة ، لكن تقلصات الوجه  
فضحت ألمه الذي أخفاه في حشجة مكتومة .  
أمره بالرجوع للصف ، واستمر طابور التدريب الأولي : صفا ..  
انتباه .. الخطوة المعتادة ، للخلف در ، استرح . والشمس تصب حممها ،  
اقترب أومباشى آخر لم نكن نعرف اسمه ، لكن قسما وجهه ،  
وطريقته في الحديث دلت على أنه متطوع ، استلم الطابور بعد راحة خمس  
دقائق ، وهمس الأومباشى عويضة في أذنه . وهو - بلوره - لم يكذب  
خبراً فجأر صوته في الخلاء : سريعا جري ، مع الوثب لأعلى .  
وانطلقنا في جري دائري حول وتد خشبي تم دقه في ساحة التدريب  
، والكل يلهث ، وينساب العرق خيوطاً ، تتحدر تجاه العينين ، فتتألم  
من الملوحة ، ونهمهم : كفى .. يا أفندم .  
والأومباشى المتطوع لا يكفيه إلا أن نطب ساكتين ، وقد صعب  
الأمر علينا بأن جعلنا نصعد التبة الصناعية ونهبط مرات ومرات ،  
وعساكر منا تتساقط ، وهو يجذبها بعنف ، ويدفعها للطابور من جديد ،  
حتى تقطعت أنفاسنا ، وامتنعت وجوهنا .  
نظرت للعسكري سراج ، كان يغالب ألمه ، والعرق يصنع دائرتين  
واسعتين تحت الإبطين . وجاء الأمر صارماً كالسيف : قف .. لليمين هذا  
...  
لحظات التقاط الأنفاس . انتظرنا الأمر استرح لنمسح بالمناديل  
الكاكية عرقنا دون جدوى . خبط الأومباشى المتطوع سراجاً في كتفه :  
ما هذا البلل ؟  
لم يرد المحامي المنخرط في الخدمة حديثاً ، فالسكوت في الجيش  
من ذهب .  
ونظر إلى البنطلون الواسع الفضفاض ، كانت هناك خيوط لا  
تكاد تبين من عرق : هل عملتها على نفسك ي عسكري ؟

تقدم سراج خطوة للأمام ، ونطق بقوة : أنا متظلم .. ما يجري هنا  
ضد أبسط حقوق الإنسان .

شجر الأومباشى ونخر ، وأطلقها كالقذيفة : نعم ، يا روح أمك .  
ثم بدأ الأمر بالزحف الثعباني ، والأرض قطع من حصى ، لها  
سخونة لا تطاق . ولم يجد سراج مصطفى القرانقلي مفراً من تنفيذ الأوامر  
بكل دقة .

وبعد انتهاء طابور الزحف ، سأله الأومباشى المتطوع : ما شعورك  
الآن ؟

تأمله العسكري من قدميه إلى أعلى الرأس بنظرة كلها غل وأسى  
مستزجين : شعوري أنك جاهل !!

ضج الموقع كله بالضحك ، حتى أن بعضنا ضرب كفاً بكف ،  
فقد كانت ملاحظته صائبة ، وعرفنا فيما بعد أن الأومباشى الذي  
يكدر سراج ، ما هو إلا راسب إعدادية .

توقف الهرج والمرج حين جاء الأومباشى عويضة واستلم الطابور ،  
وشكر الأومباشى المتطوع : شكراً يا أومباشى فؤاد .

كان الأومباشى فؤاد المنصوري - وهذا اسمه الذي عرفناه فيما  
بعد - يمضي نحو " الكانتين " ساحبا خجله خلفه ، وكانت المهمات  
المكتومة تعلو ، وتتخفض طيلة الربع ساعة المتبقية من طابور التدريب .

وقت الراحة تحلقنا في مرح صاخب حول العسكري سراج ،  
المحامي الذي يتحدث عن حقوق الإنسان . غمز لطفي فرو بعينه الحولاء ،  
وهو يسأله : أتدافع عن نفسك أم عنا ؟

بنبرات صادقة ، لا اصطناع فيها : أنا مثلكم .  
خبطه توفيق مصيلحي الأهل في كتفه بمودة : أصيل يا ولد .  
اعطني سيجارة " كنت " .

في لحظة لم تبق في العلبة إلا ورقة السلوفان المفضضة ، فطوى  
العلبة ، فركها في يده ، اتجه نحوي : الجيش هذا . فيه من الحياة كثير  
. لا يمكنك تفصل بين النبيل الرفيع ، وبين الدنيء الوضيع . فيه معاناة  
وتعب ، لكن له قانونه . عليك أن تفهمه . ستخسر كثيراً إن فرضت عليه

شروطك .

شردنا جميعاً ، وصاح فيه العسكري صبري الأرنؤوطي : أهـي  
مرافعة يا أستاذ ؟

عاد الضحك من القلب ، وعمنا صفاء نقي ، غسل أرواحنا المجعدة

بعد أسبوع واحد ، زارت الكتبية سيارة جيب ، ارتج لها العسكري  
كله ، ونزل منها ضباط كبار ، بشارات أركان حرب الحمراء المثلثة  
على طرير في الياقة ، ودوى صوت البروجي ، وتم جمعنا في غير وقت طوابير  
التدريب . واهتم الصولات بالزي ، ونظافة الخيام ، ورفع علم جديد على  
سارية ساحة التدريب الأساسية .

وجاء الضابط أنور عدواً ، وهو يسأل : أين الباشا سراج مصطفى ؟  
ضحكنا جميعاً للفظ " الباشا " . تقدم من العسكري ، وهو يسأله في ود  
كنوب لا يخفى على عاقل : مبسوط يا سراج ؟

هز العسكري سراج رأسه ، فلم يعرف الإجابة بالضبط . إلا أنه  
أخذه من الصف ، وهمس في أذن الأومباشى عويضة : يبدو أننا ستأخذنا  
داهية .

وفي خيمة القائد ، جلس سراج مصطفى مع أقاربه ، قدموا له  
لفائف طعام وحلوى ، وقروصة سجائر " كنت " ، وسأله قريب له عن  
الحال ، فرد على الفور : هي تجربة .

نظر إليه عمه اللواء ، وهو يختبر عناده : أنتقلك إلى السرية الطبية  
لتكون قريباً منا ؟

تجهم العسكري مصطفى ، ونسي الرتبة التي يتحدث معها : قلت  
أنني مستريح هنا .

تنفس القائد في راحة ، وجاءت زجاجات المياه الغازية ، ودارت على  
الرتب ذات الياقات الحمراء . والغريب أن العسكري سراج ظل واقفاً  
كالألف عند باب الخيمة التي تدور المروحة في سقفها ، والتي يشغل  
الركن الأيسر جهاز تليفزيون . حتى أنه رفض زجاجة المياه الغازية .  
وحين أوشكت الزيارة على الانتهاء ، قال خاله المقدم : أنت تعرف

تليفون كل منا ، حدثنا عند أي مشكلة .  
قال لهم ، وهو يستدير عائداً إلى الطابور : لا مشاكل لدي .  
المشكلة عندكم في الجيش نفسه .  
وقد ركبوا سيارة الجيب الأنيقة ، وهم يتابعون سيره إلى الجمع  
المصطف ، ولم يدهشهم حديثه ، فقد كانوا يعرفون أنه متمرّد بطبعه .  
لكن لديهم إحساس لا يخيب في أنه سيعرف الكثير من أمور الحياة في  
هذا المكان الموحش ، المنقوع في الخلاء .

## أربعة شرائط سوداء

كل عسكري مستجد ، عليه أن يعتبر نفسه قد سقط من قعر القفة . وواجب عليه أن يخشى صف الضباط والصولات ممن وهبوا زهرة شبابهم للجيش ، حتى شاب شعر رؤوسهم ، ووهن العظم منهم ، رغم أن أغلبهم لم يتجاوز خط الأربعين باستثناء خلاف خلف ، والصول عبد الخالق ، والأومباشى عويضة .

كان الأخير قد حصل على أربعة شرائط ، وفعل فعلة نكراء ، فخفضوا رتبته ، واقتصوا منه شريطين ، ويقال أنه ظل يبكي هذين الشريطين أياماً وليالي حتى صارت الدموع دماً ، وفي هذه مبالغة لا نرضاها .

ما علينا . تعالوا معنا لخلاف ، وصلوا على النبي ، فحكايته حكاية . إنه راضع الميري من "بز أمه" ، فلا ضحكة ولا ظل ابتسامة . فقط تجهم وعبوس لا حد له .

سواء في الطوابير أو ساعة المرور على الخدمة ، يقف كالوتد المدقوق في الأرض عندما يتحدث إلى أي ضابط ، وتراه حريصاً على قص شاربه ، وحلاقة ذقنه مرتين يومياً ، أما الشرائط التي تحتل حيزاً كبيراً على كتفه ، فكل فتلة منها لها ثمنها . وهو صعيدي قح ، بلهجة قاهرية ، فالأهل قد استوطنوا الشرايبة منذ أربعة أجيال .

لكنه منقوع في صهد "جرجا" بالوراثة . فإذا كان الصول عبد الخالق حريص على الضبط والربط ، وذل الجنود في صحوهم ومنامهم ، فإن خلاف يزيد على ذلك بأمرين ، الأول كرهه الشديد لأي مجند يحمل مؤهلاً عالياً ، حيث يحاول تصيد خطأ من هنا أو من هناك ليمسح

بكرامته الأرض .

الثاني حبه الشديد للصعابة ، أصحاب البشرة السمراء ، فلهم وحدهم المعافاة من لم الورق ، وانتزاع الحصى في عز نقرة الشمس ، وهذه وسيلة لتتحول بشرتهم الفاتحة إلى سمراء ، كي تسري في دهمم النخوة والرجولة .

خلاف خلف متطوع ، متجهم ، عصي على الضحك ، عيبه الوحيد الذي يعترف به بينه وبين نفسه أنه كان يصلح ضابطاً ، والظروف وحدها هي التي عاكسته ودفعت به إلى درجة أدنى .

إنه لا يعترف بالوقت ، وفي تقديره أن الواحدة صباحاً ساعة مناسبة جداً ، ليجمعنا من عز نومنا ليتفحص وجوهنا في ضوء النجوم البعيدة ، ليرى هل نفضنا النوم من أعيننا أم ما زلنا مستسلمين لسلطته ؟ يقف مرتدياً زيه الميري كاملاً وكأنه ذاهب للعرض العسكري فيتلو على أسماعنا واجبات الجندي عند تعرض الموقع لخطر هجوم الأعداء .

نبلع ريقنا ، ولا أحد يجرؤ على معارضته ، وإخباره أننا في معسكر تدريب ، لا فيه هجوم ولا يحزنون .

لكن من يعلق الجرس في رقبة القط ؟ هذا السؤال حيرنا كثيراً . وضعنا أملنا في سراج القرانقلي ، فهو ابن ناس ، وعائلته واصله . لكنه امتنع عن التصدي لهذا الباشجاويش المغرور .

وصدق المثل الذي يقول : " يضع سره في أضعف خلقه " .

فقد فاض الكيل بالعسكري " البوطسى " ، وهو اسمه الأول ، الذي حيرنا ، مثلما أغاظنا صمته على مدار خمسة وأربعين يوماً ، قضاهما في هدوء وسكينة ، فلا يرد على أي سؤال إلا بكلمة واحدة لا غير : " أفندم " .

جمعنا خلاف كعادته ، فقمنا نهروا ، وخلفنا بخطوتين جاء البوطسى يمسح نومه بفوطة بللها العرق . وقفنا صغافاً ، كالأسرى الذين يستعدون للشحن في قطارات الليل .

شخط الباشجاويش فينا جميعاً ، اتهمنا بالدلع وقلة النخوة ،

بالليونة والمرقعة . أعطانا درساً في الانضباط الكامل ، والسرعة في تلبية الأوامر .

كانت أجسادنا ما زالت محتفظة بشحنة النوم ، وسخونة الأغشية ، بل إن بعضنا كان يحاول اختلاس سنة نعاس . في الوقت الذي انتهى فيه كلام خلاف ، ارتفع شخير خفيف لفرد في الطابور .

بهتتا للصوت . للحظة أو أقل ارتبك خلاف ، وسرعان ما ارتفع زئيره ليرج العساكر : من شخر منكم عليه أن يتقدم خطوة للأمام .

لم يستطع أن يبصر الفاعل في ظل هذه العتمة الموغلة في حذوها . وظلال الأعمدة في آخر المعسكر تتحرك بسرعة كلما مرت سيارة ، أو أضاعت فوانيسها للحظات .

البوطسى ، الذي لا يتكلم قطعياً ، رأيناه يتقدم . يعلو شخيره أكثر فأكثر . وإذا بيده تمتد إلى ساعد الباشجاويش فتنتزع شرائطه السوداء ، وتلقي بها إلى الساحة الواسعة .

ارتفع الظياط ، وهلل العساكر ، فأسرع خلاف إلى الساحة ليأتي بأشروطته . وعندما عاد لم يجد في المكان عسكري واحد يوحد ربه .

في صباح اليوم التالي حلقوا رأس البوطسى ، وشاربه ، وتم تكديره لثلاثة أيام متتالية . إلا أن صمته كان يشوبه همهمة غامضة . واحتلت وجهه ابتسامة لا يراها ، ولا يحسها إلا العساكر أمثالنا !

## الهدف

كانت أسنانه تصطك ، وقلبه يرتجف ، وهو يقبض على بندقيته ، ويستعد للتقدم نحو التبة ، كي يرقد على بطنه ويستعد لإصابة الهدف . للمرة الأولى في حياته التي يقيض له أن يضرب ناراً ، أو يسمع صوت الذخيرة الحية ، وهي تخترق الشاخص ، وتصطدم بقطعة المعدن الصغيرة بالحائل الصخري العنيد .

يسمع كثيراً عن حوادث الثأر بالصعيد ، لكنه من بحري ، وقد شرب مهنة الأب ، التي أخذها عن سابع جد ، ويده تلك التي تحفر زهوراً في الخشب الزان والسويدي تُلَف في حرير .

هو الآن يستعد لتلك اللحظة الفارقة في حياته ، وعليه أن يفعل المستحيل كي يكتُم أنفاسه ، ويضبط زاوية التشين حتى لا تطيش طلقاته .

ليس عليه أن يفكر في الورشة ، ولا في عدة الشغل التي تركها في البنك ، ولا في صورة "سعاد حسني" التي تضحك لزهور النرجس من حولها ، وتقني بصوت كله مرج "الدنيا ربيع" الرمل الأصفر يحاصره ، بلونه الأخضر ، وخشونته ، والشمس تسقط وراء ظهرها ، فتثير حنقه .

ركب السيارة إلى التبة منذ الصباح الباكر ، وراحت العجلات

تذهب الطريق ، ومفاصل المقاعد الحديدية تتكثك ، وترجه رجاً ،  
فيستند بمرفقه على ساق من يجاوره . غشيه حزن لا يعرف دوافعه ، وفي  
انحدار خيط العرق على رقبته تأكد أنه لا يحلم ، فالיום هو ختام  
الكلام النظري ، والدخول بكل ثقة في معمعة الفعل .  
في أفلام السينما التي يحرص على مشاهدتها صباح كل جمعة ،  
كان يبسطه أن يشاهد المعارك الحربية ، والجيوش تتحرك في جحافل  
مرعبة ، بينما الرصاص يفتك بالجنود من الطرفين .  
كانت البنادق والمسدسات في أيدي المتحاربين ، وكان يجلس  
مسترخياً في كرسية المعتاد آخر الصالة ، وبالقرب من الحائط ، تتناوب  
، وهو يغالب وخمه ، ومنديله المطوي بعناية في جيب السترة ، يمسح به  
وجهه ، فتملأ أنفه رائحة "سيكريه" . هو الآن في قلب الفعل ، والوصول  
يرفع يده بالعلم الأحمر ، ويأمره بالتقدم ثلاث خطوات للأمام .  
"انتباه" . لأول مرة يعي أهمية هذا اللفظ ، فيحمله إلى حروفه قبل  
المزج ، ويدرك أن حالة الانتباه للهدف تعني له الكثير .  
حمل السلاح الآلي ، وشعر بأن ثقله لا يحتمل ، والسونكي المديب  
للأمام في غطرسة ثقيلة ، أكدت له خطورة الأمر .  
خشخشة الصدور من حوله ، يسمعها ، وتسقط نظراته على  
أسراب نمل تتحرك يمين المدق ، ثم ما تلبث سحابة خفيفة أن تعبر فوق  
الهدف ، فتظله لثوان معدودة ، قبل أن ينكشف عن ضوء صريح ، لا  
ريب فيه .  
"انبطح" . أمر لا مجال فيه للتراجع . على نفس الخط الوهمي  
ينبطح البوطسى ، والأرناؤوطي ، وسراج القرنفلي .  
كل يقبض على سلاحه في استماتة ، يلصق الدبشك بكتفه لصقاً  
، ويغمض عينه اليسرى ، وتحط ذبابة على أنفه فيكاد يجن ، لكنها  
تبعد - ربما رافة به - فيضع كل همه في الخط الواصل من فوهة  
البندقية إلى أسفل منتصف الهدف .  
"استعد" . تفتتح في هذه اللحظة طاقة نور لتأخذه إلى عالم آخر ،  
حيث عليه أن يثبت رجولته . هي لحظة أشبه بلحظة الجنس ، واكتشاف

عوالم الأثنى ، وسعرها الخفي .  
ريما كانت اللحظة بقسوتها ، وخشونتها ، على التقيض تماماً .  
لكن الاصبع سيضغط ضغطته القوية بلا أي إحساس بالذعر . وقتها  
يدخل دنيا أخرى .  
" اضرب " . وقف شعر رأسه ، ويسراه تحتضن مقدمة البندقيّة  
المساء ، وصدغه يضغط بقوة على الدبشك الأملس ، ورائحة عرق تنفذ  
إلى نخاشيشه .  
" اضرب " للمرة الثانية . اكتشف أنه لم ينفذ الأمر بعد ، وحينئذ  
هصر الزناد ، فشم رائحة البارود ، وارتج صدره فبادر ، بإطلاق  
رصاصات تلو رصاصات ، وعينه المفتوحة تدمع ، لكنه يواصل الرمي  
حتى نفدت طلقات الخزنة .  
" انهض " . كان انساناً آخر لا يعرفه ، يهب من انبطاحه القسري ،  
وثمة رائحة بارود تختلط بعرق يتصبب من جبهته ، في تلك اللحظة لم يعد  
لديه شك في أنه قد ترك خلفه كل مفردات الماضي .  
لم ينفذ عن ثيابه بقايا الرمال العالقة بنسيج القميص ناحية  
المرفقين ، داخت رأسه لزمن يقترب من اللحظة ، وجد ساقيه تتحرك  
للمؤخرة مع زملاء الرمي .  
ولقد شعر أنه أطلق رصاصاته الأولى ، وصار خفيفاً ، قادر على  
التعليق ، والارتفاع في الفضاء الفسيح إلا أن روحه البريئة أشعرته بالذنب .  
تفادى النظر في عيون الزملاء ، وفي الليل ناوشه شعور خفي بالرضا  
من نفسه ، ولاحظ الشعيرات التي بدأت تنبت في صدره أسفل وأعلى  
الثديين ، وحول السرة !  
في الليل شعر بأن روحه تنتحب نحيباً خفياً ، وكان عليه أن يضع  
رأسه على الوسادة الخشنة ، ويخفي دموعه التي تسلت على غير إرادة  
منه !

## القسم الثاني

### نظرة على حكايات الأخصائي



## البنات

بعد خمسة وأربعين يوماً بالتمام والكمال في معسكر الأساس ، حصلنا على أجازتنا الأولى . أدركنا أن أصحاب الزي الكاكي لا يغادرون ثكناتهم إلا بتصريح مهور بإمضاء رئيس العمليات ، والخاتم الأسود على هيئة نصف دائرة حاملاً كودي الوحدة .

بعد عودتنا تم توزيع الجزء الأكثر عدداً على الكتائب الميدانية على ضفة القتال ، وسيناء . لم يكن قد مرَّ عام كامل على حرب ١٩٧٣ ، وفوجئنا بقوائم المميزين تُدفع إلى الأخصائي . سألنا عما يعنيه تعبير "الأخصائي" ، فكان الرد أكثر إبهاماً : ستذهبون وتعرفون .

كان المعسكر في نفس المنطقة ، لكن القشلاق أوسع بكثير ، والنظام فيه أحسن ما يكون . هنا يتم تدريب سرايا المشاة المتعاونة : الهاون ٨٢ مم ، الرشاشات الخفيفة ، الم / ط ، الم / د . . وغيرها .

الصيف على وشك الاندحار ، ولم تعد تخوفنا طواير التمام ، والتدريب ، والمهارات الأساسية في فك وتركيب البندقية الآلي ، ولا تنظيف الماسورة ، والسونكي صباح كل يوم .

في "الأخصائي" ، صرنا أكثر هدوءاً ، وأقل صخباً . والبكاؤن كفوا تماماً عن النحيب . والنعرة الكنوب عن الأصل والفصل توارت تماماً ، فالكل أولاد تسعة . ومهما قلبت الأمر على وجهه ، فلا وجود للعدل المطلق ، أو الراحة الأكيدة .

لأن العسكري يكدره أومباشى ، والأومباشى يضعضه صول ، والملازم يفعل بما هم دونه رتبة كل ما يمكن تصوره ، أما اليوزباشى أو الرائد فهي نجوم ونسور تمشي على الأرض بالكاد .

سنعرف فيما بعد ، وحينما نذهب إلى الكتائب القتالية أن كل ذلك سيتبدد ، ليس تماماً ، ولكن ستكون هناك ترتيبات إلهية من لدى حكيم مقتدر ، تجعل الرتب الكبيرة أكثر رحمة ، وأدعي إلى التسامح رغم الخشونة الظاهرة .

لكننا الآن في الأخصائي ، وقد تيقن كل عسكري أن الأمر قد اختلف الآن . ولا بد أن توجد " البنات " . في صور فوتوغرافية داخل الحفوظ الجلدية . بنات مثل العسل ، ترقد صورهن بين طيات الأوراق الهامة . وفي كل فرصة مناسبة ، ويلمح البصر يتم التوحد ، وتشهق الصدور المعذبة بفراق قسري لا راد له : في الأساس كانت هناك إشاعة قوية بأن القيادة تدس سائل الكافور في مشروبنا المبجل " الشاي " ، فتهمد الأعضاء ، وتسكن الأطراف .

في الأخصائي ، صار الأمر أسهل نسبياً ، فالحصول على تصريح بالمبيت يمكن مرة أسبوعياً ، وهي فرصة نادرة لشرب الشاي العادي في المقاهي ، والغرز القريبة حول القشلاق .

يمكن الآن الخروج خميس وجمعة ، وسيندفع الكل تجاه محطة المترو ، هناك يمكن رؤية البنات في أبهى صورة ، كل واحدة تحتضن حقيبة المدرسة ، وتخفي الصدر التناهد لحين .

أفراد المعسكر تغيروا ، وصار التعارف أسرع ، يبدأ بإشغال سيجارة ، ولا ينتهي إلا بالعودة للقشلاق بعد أربع وعشرين ساعة تشغلها حكايات عن البنات .

البنات في المناطق الملاصقة لمعسكرات التدريب كلهن حرصوا واحتراس ، كلما ابتعدت إلى الأطراف يمكن أن تعثر على بنت جميلة ، شعرها ذيل حصان ، ونظرتها حنان ووله . بنات ممشوقات يرتدن الكريب والحريز ، والبلوزات الصيفية المفتوحة حول الأعناق .

كل الحكايات تبدأ باصطدام صنعة صدفة ، واعتذار ، ثم تمشية على الكورنيش ، حيث يلعب الترمس دوره الخالد في تقريب المسافات بين العشاق ، فهو - أي الترمس - يصنع مسافة زمنية بين كل سؤال وجواب ، مسافة زمنية كافية تماماً لتدبير الكلام المناسب .

وتصبح الوردة الحمراء ، أو عنقود الفل المرصع بالياسمين هو عريون المحبة .  
كل رجال " الأخصائي " يبحثون عن البنات ، وعن قصص حب  
حقيقية أو زائفة . المهم أن تكون هناك فتاة تنتظر كل خميس على  
رصيف المترو ، أو أمام سينما صيفية ، وربما في حديقة عامة مفتوحة .  
لا أحد من العساكر يفكر في الحرام ، أن القلوب الكاليلة لا  
تعرف الملاوعة ، والكذب . فتاة البنات تتجلى في لحظات الصمت الطويلة  
حين تماس الأصابع ، وتسري الارتجافة من الأكف إلى الصدور .  
ما حال ابن النفيس ، وهو يكشف عن الدورة الدموية للإنسان ،  
هل اكتشف فروق في الدرجة بين سريان الدم في قلوب المحبين ، وغيرهم  
ممن لم يدخلوا في تجربته ؟

هل للأفروال الكاكي سحر ، وهل للبيادة السوداء فتنة ما ؟  
لا أحد يظن هذا . ربما كان السر في تلك الأجساد الفتية التي  
تتفجر صرعة وعنفواناً ، والأذرع المفتولة التي تعلن عن رجولة حقيقية .  
أما الشعر المفلل القصير بطول ربع بوصة ، فهو يخص القشلاق  
وقوانينه الصارمة لا الأفراد المغلوبين على أمرهم . كذلك فإن البشرة  
السمراء التي دبغتها الشمس فإن لها طابعاً شعرياً ، يخطف قلوب البنات  
خطفاً .

القلوب الغضة بحاجة إلى حب بريء ، يبحث عنه العساكر في  
أجازة الخميس والجمعة التي تستمر في " الأخصائي " لشهرين كاملين .  
الصفات الناعمة الطويلة ، والشعور المناسبة على الظهور تقوم  
بالفعل نفسه . فهي تومئ إلى طبيعة الشخصية . أما لغة العيون فهي الحد  
الفاصل بين الموافقة والامتناع . وتظل هناك منطقة محايدة ، تتقلب فيها  
القلوب ، بين الرفض والقبول ، فالحب بحر غويط ، يحتاج إلى غواص  
ماهر .

والعساكر ككل الرجال ، يحتاجون إلى البنات أكثر من غيرهم  
فالحرم الطويل يولد العطش . ولمسات قليلة من الطبيعة تحول البنت  
البريئة إلى فتاة باهرة الجمال .  
لكن في ليل المعسكر ، لا أحد يبوح بسرّه ، لا أحد يسمح

للآخرين بانتهاك سره ، حتى لو كان ذلك بالتلصص ، واستراق النظر إلى صورة فوتوغرافية ، فالمبدأ لا يتجزأ .

وهذا ما دفع عبده طه لأن يتشاجر مع زميله يوسف الفناجيلي حين كان يستحم في الخلاء بزمزميته ، وعاد ليجد صورة فتاته بين يدي صاحبه ، يحملق فيها بفضول غريب .

صعد عبده طه الأزمة ، وأقسم أنه سيثأر لكرامته ، وجلس في ركن الخيمة مقهوراً ، منزوياً ، يزم شفتيه في غل مكتوم .

بعد أسبوع واحد كانت صورة " نوال " بين يديه يقلب فيها بنفس الفضول ، بعد أن ذهب زميله إلى الأدبخانة وعاد بعد ربع ساعة .

حملق العسكري يوسف في الصورة ، وعلا صوته تسخيناً للمشاجرة ، فسارع خصمه بالحديث :

انتظر . . واحدة . . بواحدة .

وظل " الأخصائي " ضمن طوابيره المتعددة مطمعاً لكل عساكر المشاة المستجدين بحثاً عن نسمة هواء منعشة عصر كل خميس وجمعة ، ولكنه لم يكن يستحوذ إلا على المتميزين في فرز حقيقي واختبارات دورية في " الأساس " .

في هذا المعسكر كانت الأفروات العسكرية قد تم تضييقها أو توسيعها لدى الترقية في كافة مدن وقرى القطر . وصار الزي أنيقاً ومناسباً ، بل أن البعض تفتق ذهنه عن حيلة بارعة ، وهي إخفاء زي خاص بالأجازة ، فيه كل فنون الموضة ، وأصحاب هذا الاتجاه كانوا فريسة دائمة لرجال الشرطة العسكرية في مطارداتهم الليلية المثيرة .

أما أبناء الريف ممن نهشتهم البلهارسيا ودودة الانكلستوما ، فقد كان لهم حريمهم ، من بنات العم والخال ، وعادة ما يتم عقد القران فور الانخراط في الجندية . ويسمى هذا " حبس " العروس لحين انتهاء فترة التجنيد .

قلت في بالي : حبس هنا ، وحبس هناك .

لا أحد سمعني ، وسيطرت على فكرة : ماذا لو خلق الله الكون بدون بنات ؟

وماذا كان العساكر يفعلون في أجازاتهم بغيرهن . إن هذا الجنس اللطيف ، الأسر ، المعذب للرجال ضرورة . إن غموضهن ، وجمالهن الأكيد يدحض كل نزعة للجنون الخالص .  
حمدت الله أنه خلق البنات ، للعساكر ، يحببهن في إخلاص ،

وود

## حرامي الحلة

الجيش تأديب وتهذيب وإصلاح . أنت لا تستطيع أن تتحرك إلا بناء على أوامر من هو أعلى منك رتبة .

يسري هذا المبدأ على البشر في سلك الجندي . في البداية تشعر بالقيود التي تحاصرك ، وبالسلاسل تصلصل داخلك . لكن العسكري المصري داهية في البحث عن ثغرات ، ومواطن الخلل ، لذلك تجد أن الأوامر لا يتم تكسيروها ، بل الالتفاف حولها في براعة .

فمن يضيق صدره بطواير التدريب في عز الحر ، عليه أن يصيب نفسه بحمى صناعية ، بأن يأكل علبه حلوى كاملة ، يتبعها بابتلاع حفتين من الشطة السوداني ، فإذا بالعرق الغزير يتقصد على الجبهة ، والبدن يرتعش . ويكون من الضروري نقله إلى السرية الطبية ، التي تجهز سيارة " زل " قديمة متهالكة كي تنقله على وجه السرعة إلى أقرب مستشفى ، كان هذا هو السائد في " الأساس " ، أما في " الأخصائي " فهناك تدريب عنيف ، لكن ثمة فترات راحة معقولة .

رغم هذا ، فقد طقت في دماغ فكري الحلو أن يرى شوارع الحي الراقي في غير أيام الخميس والجمعة ، وخاف أن ينكشف أمره إذا ما تجرع الحلوى والشطة . وابتكر حيلة جديدة بالتعاون مع ملاك حنا صاحب القبضة الأسطورية . فقد أعد العدة لوضع نوع من الدهان على الوجه والعنق ، ثم وقف في الشمس مقدار ساعة كاملة ، وسرعان ما صار جلده أحمر مشدوداً كأنه الطبله ، راح يسب ويلعن ، ويصيح أن

مرضاً قد أصاب جلده ، أخفى الجميع ما رأوه من أمر الدهان ، وتم تحويله مع توفيق مصيلحي ، وملاك حنا نفسه ، شريكه في المؤامرة . وبعد التوقيع على أورنيك العيادة ، سارت العربة في طريقها مشيعة بنظرات الحسد الأكيد .

في الشطر التالي من النهار ، لم يكن هناك شيء يفعله العساكر ، لذلك تفتق ذهن لطفي فرو أن يلعب مع الحشرات . ثقب في أنحاء المعسكر على زجاجة تشف ، وملأها بالرمال الساخن الذي تشعر بأنه جمر من النار ، ثم راح يضطاد النمل الكبير المعروف بالاسم الحركي " حرامي الحلة " ، ويضعه داخل الزجاجة ثم يرقب الصراع الدامي بين النمل الأسود الحبيس الذي يحاول الصعود ، وكلما نجحت نملة في الوصول إلى حافة العنق ، هزها - أي الزجاجة - بعنف ، فراحات تتزلق وتحاول من جديد .

كان لطفي فرو يمارس لعبته الغريبة ، بكثير من المتعة ، فلما جاء زميله الحناوي ليسأله عن سر ما يصنع . نظر إلى وجهه في تحد عنيف وكأنه يلكمه بالكلمات ، صرخ في وجهه : ألا ترى ، هذا ما يحدث لنا يا دفعة ؟

فلما أراد الاستفسار : كيف ؟

هز رأسه بعد أن يأس من غباء هذا العسكري الذي يأخذ الأمور ببساطة : إنني أبحث عن السبب ، وسأهتدي إليه .

إلا أن النمل الأسود لم يكن وحده ، كانت هناك سحالي خضراء زاهية اللون ، لها جلد مبرقش تخشخش تحت الأوراق ، لم ينجح أحد في اصطياد سحلية باستثناء لطفي الذي ادخر كل جهده للبحث عن كل جحر تحت أعمدة الأسلاك الشائكة ، فيمد يده يتحسس الممرات الخالية ، وتروح أصابعه تبحث هنا وهناك حتى نجح في تحديد مداخل ومخارج عدة جحور ، وفي كل مرة توشك خطته العدوانية على النجاح ، وتفتر السحلية بأعجوبة مستخدمة وسائل الهرب المذهلة . فهي ملساء ، خادعة ، تعرف كيف يمكنها أن تراوغ .

في المرة الوحيدة التي نجح فيها لطفي فرو في غزو مملكة السحالي

كان باستخدام " ضلع الهايك " ، إذ ألقاه ، وقبض على الجسد المستطيل الذي كنا نرى نبضه من تحت التيل المموه .

أحكم لطفني الغطاء على صيده الثمين ، وأقسم أن الدور قادم على العناكب وهذه حكايتها حكاية .

العناكب في هذه الصحراء ليست من الفصيلة الهزيلة التي تصنع خيوطها الترابية في الأسقف العالية ، وبين الجدران ، وتجنب إذا ما شعرت بخطورة إنسان .

إنها عناكب تصلح لخيام العساكر ، بل أن لونها الباهت الضارب إلى الصفرة مع حجمها الكبير نسبياً ، وحركتها السريعة جعلتنا لا نطاردها ، إذ ليس ثمة ضرر من وجودها في " الأخصائي " ، بل صرنا نتقبل وجودها مثلما نتقبل وجود فضائل الكلاب التي باتت أسمن ، ولا تقبل إلا على الثمين من الطعام .

كلاب الأخصائي ليست هزيلة مثلما كان الحال في الأساس ، ولا يوجد لها مواعيد ثابتة تأتي فيها مثل موعد صرف التعيين . كأنها أدركت أن هؤلاء العساكر في بحبوة من العيش ، وهو أمر نسبي ، لذلك كانت تتكاسل وهي تأتي فرادى ، فإذا ما قذفت بعضهم من فخذي الضائي ، فهي تتلكأ ولا تعدو ، بل تقدم ساقاً وتؤخر ساقاً .

ولقد رأى لطفني فرو هذا التكبر فاغتاظ للغاية ، وقف على طول السلك الشائك ، وصرخ فينا أن فتفتة الخبز حرام في هذه الكلاب التي تتبخر على النعمة ، ويتمردون .

ونكاية فيهم كان يقف بالمرصاد لزملائه الذين اعتادوا إلقاء التعيين الزائد بالقرب من تجمعاتهم ، فيتناوله بيده ، ويضعه في سلال المهملات بلونها الزيتي .

جاعت الكلاب ، وراحت تتبحر ، وتتجمع في حشود لم نكن نراها من قبل . وقد أعد لطفني فرو نقطة مراقبة متحركة لإنجاح مخططه ، حتى أن قائد الكتيبة استفسر عن استمرار هذا النباح المزعج لعدة أيام ، دون أن يخبره أي شاويش بما يفعله العسكري الذي يحبس " حرامي الحلة " لأيام ، ثم يطلقه ، فإذا به يتحرك كرجال قد أصابهم الهرم بصعوبة

بالغة ، بعد ما كانوا يزحفون في سرعة فائقة .  
أمر خطير أفضل خطة لطفى فرو ، فبعد أن عمت المجاعة جماعة الكلاب ، لم نشعر إلا بهجوم شامل وقت توزيع تعيين الغذاء . لقد تسلمت مجموعهم زرافات ووحيداناً ، ولم يتجاوزوا حد الأدب ، لقد راحت تنبح في توسل ، وتهز أذنانها في إلحاح منكسر ، بينما فرو ينظر إليها بوجه محتقن .  
لم يجد العساكر بد من إلقاء بعض ما معهم من جارية ويمك ، وقطع العظام الخالية من اللحم ، خارج السور لتعود الأمور إلى نصابها ، ويفشل مخطط لطفى فرو ، الذي رأى الواقعة فصرخ في وجوههم : أيوه كده يا أولاد الكلب .  
وجلس الأطقم والجماعات تتناول طعامها ، وهو يتوعد الكلاب بيوم مر ، ولم يحدث هذا ، فقد انتهت مدة الفرقة على خير . وقبل أن تغادر المكان وقفنا نودع الكلاب التي كانت تحاول التمسح في أقدامنا بالرغم من السلك الفاصل .

## خنافس

تتعلق العناكب في حركاتها السريعة بخيوطها الترابية ، وتعدو الفئران من حفرة إلى أخرى بحذر محسوب ، أما تلك فإنني أشعر معها باليأس وقلة الحيلة . .

إنها الخنفساء . لا مثيل لبطنها ، وسيرها في مناطق مكشوفة دون أي حماية أو غطاء . لها خشخشة حالما تحتك بأوراق الشجر الصفراء المتساقطة . ولونها الأسود لمعان غريب ، سرعان ما ينطفئ خلال تسرب الرمال فوق هيكلها البيضاوي الخفيف .

لا يخشى العساكر الخنافس . يتركون للبيادات مهمة السحق ، كان ذلك في البداية ، خوفاً من دخول الملاجئ ، فلما ظهر أنها تحرص حرصاً بالغاً على أن تعيش في أماكن معزولة ، بعيداً عن البشر ، قلت عمليات الإبادة . ومضت الخنافس في سيرها البطيء ، المطمئن ، الدؤوب . حنفي وحده الذي كان يناصبها العداء ، خاصة في " الأساس " لأن منظرها يثير تقززها ، فكان يترصد صفوفها ، ويروح يدهسها ، ونحن نسمع الصوت الخشن للانتهاك ، حيث تتوالى طقطقات خفيفة ، يمكننا أن نحصي بها عدد الضحايا .

وحنفي لا يخفي حنقه من اليوم الأسود الذي أتى به إلى هذا المكان ، فقد رفع في داخله راية قاتمة سوداء ، وظل يلعن الظروف ، وكلما رأى تلك الكائنات تسير في أطمئنانها الوثائق يشتد غضبه ، ويعبر عن نفاذ صبره بأن يدهسها دهساً بلا هوادة .

اليوم ، وفي راحة الغداء ، خرج العسكري حاتم ليأتي بالتعيين ،

حتى لا يتأخر عن الصرف ، وضع قدميه في أقرب حذاء ميري ، واندفع إلى الطابور ، حيث أعطى تمام السرية ، وشعر بشيء يلعب في أصبعه .  
لم يعر الأمر اهتماماً ، ركز كل تفكيره في أن يحصل على الجراية كاملة ، وقطع لحم يمكن أن يقسمها بالطريقة الشائعة ، التي تعتمد على ميزان حساس باليد ، وداخل الأصابع المدرية على إشاعة العدل في " الزفر " واليهمك !

كنا قد خلعنا الأفرولات الكاكية ، وجلسنا بهلابسنا الداخلية ، نستروح شيئاً من النسيم الذي يهب هبات واهنة ، متقطعة .

وأتى العسكري حاتم حاملاً التعيين ، فقمنا نساعد ، وقبل أن نهب من مكاننا ، وجدناه يضع الأروانات جانباً ، ويخلع البيادة ، ويقلبها ، فتخرج خنفساء لعينة ، تمضي في طريقها ، وعليها أن تكمل ما بداته .  
كان يمكن أن ينتهي الأمر بهذه البساطة ، ولكن الله له حكمة في إعطاء بعض الرجال عقول العصافير . ففي لمح البصر أسرع حنفي إلى الملجأ ، ليحضر فردة بيادته ، ويسحق بها الكائن الذي لا يطيق رؤيته .

كان منظرًا مقززاً لكل من رآه ، خاصة وأن العسكري حنفي في هجمته الشرسة على الكائنات الشبيهة ممن صادفها حظ عاثر بالمرور في المنطقة ، قد اصطدمت قدمه بأروانة اليهمك ، فإطاح بها ، وانسكب التعيين الشهي ، واختلط الإدام بالرمل .

وكان في صدورنا بركان ، كان عليه أن ينفجر في التو ، فقد هجمنا على ذلك العسكري المعتوه ، ورحنا نركله بأقدامنا ، ونصفعه بأيدينا ، وهو يصيح بنا أن نتركه .

كان يبدو متكوماً بشكله المذري ، يخفي وجهه بيديه ، وكل منا يكاد يبكي على الطعام الضائع ، فليس معنا نقود لنشتري من " الكانتين " ما نأكله .

تصاعد البخار ، وصعد الدم إلى يافوخ الجميع ، وهم ينعتون العسكري حنفي بأبشع الصفات ، وتراءى لنا في تلك اللحظة أشبه بالخنفساء التي تتعرض لمكائد الدهس ، ورغم أن العسكري حاتم ، أسرع بإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فحمل الجراية ، وما تبقى في قعر أروانة

اليحك من بقايا الطبخة السوداء ، فقد كنت أشعر بنفس صوت الطقطقة  
التي كانت تصدر من حشرة الخنفساء .  
حين انفث الغضب ، كانت عودتنا بظهور محنية إلى الملجأ ،  
وكان رزق الذي فرد مشمعه وأحاطه بقطع الحجارة يجلس متحسراً ،  
واضعاً رأسه بين كفيه .  
رأى حنفي يعود هو الآخر مخنولاً ، وحامد يعصر ذهنه في كيفية  
توزيع الطعام بلا يمح .  
هبط خاطر مفاجئ على رأس رزق ، الذي صعد إلى سريره ، وأخذ  
هيئة الخطيب :  
يا معشر السرية . إنها أيام قحط ، فمن لم يجد يمح ، فعليه  
بالجراية ، يفرجها المولى من عنده .  
ضج المكان بالضحك ، ورضى العساكر بالغموس القليل ،  
وابتهجت نفوسهم لأن قطع الباذنجان القليلة المتبقية كانت أشهى من أي  
طعام . أكلوا ، وقبلوا أيديهم ظهراً لبطن ، وقالوا جميعاً قبل رفع المشمع  
عن الأرض : سفرة دائمة !

## شربة ماء

تعددت الأسباب ، والموت واحد . فكل ابن أنثى وإن طالت سلادته .  
يوماً على آلة حديداء محمول . كلام صحيح ، وهو بيت شهير لشاعر مدح  
الرسول ، واعتذر بأدب عما سلف .

لكن ما حدث للعسكري بطرس شيء تعجز عن فهمه الألباب .  
خاصة وأن هذا العسكري البدين صامت ، لا يتكلم إلا فيما ندر ،  
وحديثه أقرب إلى الهمس . لا تسمع منه سوى : حاضر يا أفندم . . تمام يا  
أومباشى . . أوامرك يا حضرة الصول . وهو برغم بدانته المفرطة إلا أن  
عضلاته منتفخة ، فهو حريض على أن تلبو مفتولة ، وصدره المتضخم  
المكسو بالشعر يؤكد لك أن نظرية دارون في محلها .

إنه مهذب ، صامت ، محبوب من الجميع لأدبه ، لكن إياك أن  
تتبشه ، وتثير غضبه ، فما يحدث سيجعل سيرتك في القشلاق عبرة وعظة

وما حدث في السادسة والنصف جرى بنفس التسلسل الذي  
سأذكره حالاً . إذ كنت قد خرجت في نوبة " البرينجي " وناديت  
حكمدارية الجماعات كي يسرعوا بتسلم تعيين العشاء ، وهو عبارة عن  
" مكرونة " وقطع من الجبن المطبوخ .

وكعادة أفراد كل جماعة ، رأوا أن المسألة لا تحتاج إلى إعادة  
تقسيم ، فباستثناء عساكر الخدمة الذين سيضعون نصيبهم في أروانة

الفرد ، يمكنهم تناول الطعام سوياً . ولم لا ، وفي اللمة بركة ، وهذا قلة قنلوي أحضرها رزق من الطللية ، وفوقها طبقة من الخيش لزو التبريد .

أسرع كل عسكري بإحضار ملعته ، وبقبضة يده ضرب العسكري حاتم البصلة ففدغها ، وامتدت الأيدي للحصول على شريحة صغيرة .

وبالتعبير العسكري "بدأ الضرب" ، أي تناول وجبة العشاء ، وامتدت يد بطرس بالمعلقة ، يغرف ، ويهدف المكرونة في فمه ، بدون مضغ ، وهو يسابق الزمن ، لكن لا أحد يعترض ، فالتعيين يكفي ويفيض . ربما هي ست أو سبع ملاعق . وإذا ببطرس ، يفز واقفاً ، وقد جحظت عيناه ، وتقلصت ملامح وجهه ، وراح ينتفض كالمنخوق ، وأسرعت يد رزق لتأوله القلة . فأمالها سريعاً ، وتجرع بعض الماء الذي وقف في البلعوم ، وراح بطرس ينتفض دون أن يتمكن من الكلام ، وأسرح حنفي وراح يخبطه خبطات متتالية خلف ظهره دون جدوى .

أزرق وجه بطرس ، وغامت الدنيا في نظره ، ورأيت أن أترك مكان خدمتي وأندفع بكل ما أملك من قوة ، فأدفع بأصابعي في حلقوم الرجل ، وهنا رأيت نافورة تخرج من فمه . ويطلع صوته محشرجاً ، ويرتمي على الأرض وهو يأخذ شهيقه ، ويخرج زفيره في صعوبة بالغة .

التفتنا حوله ، نمسح عرقه الذي تكثف على جبهته ، ونزيت على كتفيه في حنان . كنا نحبه ، وكأنه قادم من عالم الموتى ، خرج صوته متقطعاً : كنت سأموت . قال أغلبنا : الحمد لله . ربك كريم . لقد كتب لك عمر جديد .

حينئذ ، استرجعت دعاء أُمي على من ظلمها بأن يقف الماء في "زور" ، و"الزور" هو التعبير الشعبي للبلعوم . قلت في سري : الرجل كاد يذهب في شربة ماء .. هذا ما رأيته بعيني .

واثر اللمة ، جاء صول من "الحملة" ، وسأل عما حدث ، وضرب بطرس على صدره ، وقال : أحمد الله ، غيرك راح فيها لما اعترضت حبات ترمس مجرى الهواء في الحلق .

كان مازال غير مصدق أنه حي يرزق ، راح يتلفت حوله يمسح بعينه المكان . وقال إنه المخطئ ، وعليه أن يمتنع الطعام مثلما درس في كتاب العلوم ، وأكد لنا أن بلغ التعيين كاد يؤدي به إلى التهلكة .  
في العاشرة بدأت نوبات " الكينجي " ، وعدت إلى الملجأ . كان بطرس - الذي كتب له عمر جديد - يجلس في صدر الحلقة ، على جركن بلاستيك مقلوب . والجميع قد أعد احتفالاً بنجاة .  
تأملته ، وأنا مجهد بعد وقوف أربع ساعات على ساقين ضامرتين ، ورأيت في عينيه لمحة وفاء ، تغشيها سحابة حزن عابرة .  
أفسح لي مكاناً إلى جواره مد يده بسيجارة ، وكان يعرف أنني لا أدخن ، شكرته وأخبرته أنني متحير لما حدث .  
لكزني في صدري بهودة ، وهمس في أذني : تأتي على أهون سبب لثم جذب يدي ، وذاصرني في رقصة مجنونة مع توقيع صاحب على الأكف ، فقد كان بطرس فرحاً أنه لم يذهب في شربة ماء !

# مرآة

لا وقت للزينة . بالتأكيد هذا شيء يعرفه كل من انخرط في  
الجنسية ، ولاسيما "الأخصائي" . الخشونة هنا تشمل الأشياء جميعها .  
الطعام ، والاغتسال ، الصبح ، النعاس ، فترات الراحة ،  
نوبات الخدمة الليلية .

غير مسموح بمسح الشعر بأي نوع من الفازلين أو الكريمات .  
وحصولك على "مرآة" هو أمر أقرب إلى المعجزة ، فهذا ممنوع أيضاً . وتتم  
حلاقة الذقن بالتقريب ، وعليك أن تمرر ظهر الكف على الخدين  
لتكشف مدى النعومة ، وهل ثمة شعيرات نافرة من عدمه ١٩

العسكري حاتم عيناه تدمعان ، مليئتان بالقهر ، وجهه محنتن  
ضارب إلى الحمرة القانية ، فقد كسرت مرآته صباح السبت وعليه أن  
يتدبر أمره .

قال لنا مساء الجمعة أنه قابل حبيبته في المكان المعهود ، ودخل  
معها السينما بتذكرتين ، دس يده في جيب سترته وأخرج الكعبين ،  
فصدقناه كلنا . وفي اختبار كشف الكذب أجلسه رزق على حافة  
السريـر ، وطلب منه أن يحكي قصة الفيلم الأفرنجي .

حبسنا أنفاسنا ، ولم يرتبك حاتم ، بل غمز بعينه اليسرى وهز  
رأسه هزات الواثق بنفسه . وعلمنا - نحن البلهاء من العساكر المستجدين  
- أن السينما بشريطها الفضلي الساحر لم يخترعها أصحابها لشتون  
الفرجة فقط ، فهناك ما هو أهم وأخطر .

وقبل أن يحتج رزق على هذا الهروب ، أزاح الفوطة الميري التي تخفي

الضوء ، وراح يشرح لنا بتؤدة : على مقعدين متجاورين جلسنا ، أمسكت بيدها ، وأراحت رأسها على صدري ، كانت يداها توشكان على ملامسة عنقي حين انتطح الشريط ، وأضيئت الأنوار فاعتدلنا . كان الفضول قد أخذ منا كل ما أخذ ، واقترح حامد أن نجهز دور شاي ، بشرط أن يترك الشريط مقطوعاً حتى ينتهي . نظرنا إلى العسكري حاتم الاسماعيلاوي الدحلاب ، وقلت في سري : هذا الولد فشار ، وسوف أكشفه .

عندما تناول كل منا كوب الشاي ، أخفى حامد " وايور السبرتو " في المخبأ المصنوع ببراعة ، تحت قائمي السرير الخلفيين . قلنا نستعيد الموقف : وانطلقاً النور ثانية .

رد العسكري حاتم وهو يلهث : كانت ثمة معركة حامية بين عصابة المافيا ، ورجال الشرطة ، وحين احتدم الصراع ، وانطلقت الرصاصات من هنا وهناك . فعلتها .

استوضحه رزق ليضع النقط فوق الحروف : ما الذي فعلته بالضبط

٩

ضحك حاتم وهو يسخر من رزق ، ويستصغرنا بنظرته التي حملت لنا احتقاراً مضمراً : ألا تعرفون يا عيال ؟

وتركناه يروي الواقعة كما يريد : ضممتها إليّ ، ثم قبلتها قبلة طويلة ، كانت شفتاها حلوتين كالعقيق .

قاطعته : الياقوت أقرب من العقيق .

رد عليّ ببنجھية : اصمت يا جاهل .

وأصل حكايته التي كنا نستمع إليها غير مصدقة : فتحت عينيّ على أعضاء عصابة المافيا مضرجين في دمائهم . ولما جاء وقت الدفن ، وسارت النعوش باتجاه القبور المفتوحة ، كانت فرصة أن تمتد يدي إلى أزوار البلوزة ، لأفكها بهدوء ، واقتنص النهدين بقبضة يد لا تعرف المهادنة .

ضربه رزق على ركبتيه المفرودة ، وصاح به : كاذب : لأن من يجاورونك لن يتركوك في حالك .

كان رده جاهزاً : كلهم كانوا يفعلون مثلي ، وأكثر .  
ومع " أكثر " هذه انفتحت حكايات ، وتعددت الروايات ، ونشرت  
عروق العساكر المحرومين من البنات .  
وأرانا بعد أن هذا انفعالنا صورة جميلة ، قلنا في نفس واحد : سعاد  
حسني .  
شخر لنا ونخر : أعرف . لكن خذوها تميمة للحب .  
مد يده وأخرج المرأة ، ورأى كل منا وجهه وقد صعد الدم فيه ،  
قلنا في تأنيب ولوم : هي ضرورية لنا جميعاً .  
رد حامد ، والغضب يعصف به : قالوا ممنوع .  
عاجله رزق بتحر حاسم : مثل وإبور السبرتو ، والطعام الملكي ،  
ومجلة الشبكة ، وكل المنوعات الأخرى التي تعرفونها ، ندقنها في  
المخبأ السري !  
هززننا رؤوسنا موافقين . خرج عساكر الخدمة لنوبة البرينجي ،  
وحاول الباقين النوم .  
صباح اليوم التالي ، في السادسة ، أوقبلها بقليل ، قمنا لطابور  
الرياضة ، ومن المخبأ أخرج العسكري حاتم المرأة ، ونفض الغبار  
الخفيف عن سطحها المصقول ، أسندها على الحافة الحديدية لسريه .  
في قيام ياسين المضطرب من نومه ، وقعت المرأة ، وانكسرت ،  
تأثرت شظايا هنا ، وهناك .  
دعك عينيه المحمرتين ، أزاح الهم الجاثم في المكان : سنحضر  
غيرها الجمعة القادمة .  
قالها بصوت منكسر ، وكان الجمع قد أوشك على الاكتمال ،  
ولم يفكر واحد منا أن يلتم الشظايا التي راحت تعكس ضوء الشمس  
الوليد باستماتة !

## زيارة

أخذني سراج القرانفلي إلى مستشفى عسكري كبير في إحدى  
سواحي القاهرة . كان ذلك صباح الجمعة ، والشمس تخترق أشجار  
الكافور الهائلة وتسقط كقطع من الذهب . واجهات المباني مغطاة بالماء  
، وأشجار الزينة مقصوصة بعناية بالغة . هناك سلك على شبابيك الغرف ،  
وممرضات يرحن ويجنن ، رأيناهن من وراء السلك .  
كانت أجازة ٢٤ ساعة ، رأيت أن أقضيها في القشلاق ، لكنه  
أخذني معه ، ورفض إلحاح حاتم الاسماعيلوي الدحلاب في أن يشاركنا  
الزيارة .

كان بأفروله الكاكي ، وكنت . نسير في الطريقة الطويلة  
المغسولة " بالفنيك " ، ويطني تزوم وتكركب من الجوع . لا يمكنني أن  
أخبره أنني لا أملك مليماً واحداً . فآخر قروش تبقت معي ، اشتريت بها  
ماكينة حلاقة ، وشفرة . وتأكدت أنني سأحلها بالصوم فهو وجاء ،  
وعلي به .

كان الأطباء يرتدون معاطفهم البيضاء ، وفوقها رتب ، الواحدة  
منها تحرق معسكر اصقور ، ونجوم ، وسيوف تتقاطع مع عصي . ونحن  
نمضي في بلاهتنا بلا أي إشارة ، أو علامة مميزة .  
إنه يعرف هدفه ، وأتبعه صامتاً ، وكلما تأخرت جذبني من يدي  
وصاح في وجهي : أسرع يا مجنون .  
كنت أفتح عيني على باقات زهر ، أشكال وألوان ، في سلال

خوصية ، تحزمها أشرطة الستان الملونة . تمتعت في سري ، وأنا أصدق في جمال الغرف : ما أحلاه من مكان !  
فجأة استوقفنا رجل الأمن قبل الصعود إلى الأدوار العليا : هل هناك بطاقة زيارة ؟  
هز سراج رأسه نقياً ، وأخبره أن عمه في الدور الثالث ، بالغرفة ( ٣١٠ ) .

لكن رجل الأمن هز يده معتذراً : إنها أوامر . فلما طلب منه مهاتفة العم ، رفض في إصرار ، ودفعنا بيديه إلى الخارج ، وهو يكرر كلماته كالملسوع : ممنوع . . ممنوع !  
صبح الخجل وجنتيه ، وراح يسب ويلعن العقول المتحجرة . ثم علت صرخاته : عمي هذا . . الزيارة خسارة فيه !  
تصنعت الغضب ، لإهدار وقتنا في زيارة فاشلة لم تتم ، واقترحت عليه أن نذهب إلى "البوطسي" ، فهو الوحيد الذي أعرف عنوانه في خان الخليلي . تشكك في جدية الزيارة . بان ذلك على تقاطيع وجهه ، واقترح أن أذهب معه إلى فيلا العائلة في مدينة نصر . هزرت رأسي ، وكلماتي تتضح بالسخرية : من الجائز أن نسمع ممنوع مرة أخرى !  
لم يكررها ، وتبعني كالمشده . اقترضت منه نصف جنيه ، فشعرت بالأمان . رحنا نقفز سلالم الأتوبيس المسرعة وهي تبطئ سيرها في منحنيات الطرق ، ونشعل أجسادنا في فراغ الأبواب الخلفية المفتوحة على مصراعها .

كنت قد حصلت على عنوان البوطسي ، أيام الأساس ، ولم أزره مرة واحدة . وكانت بيننا صداقة صامتة . نشترك في أمرين لا ثالث لهما : قراءة القصص ، والكتابة .  
لم أكن أعرف عنه سوى أنه دودة كتب ، صامت أغلب الوقت ، له عينان حزینتان ، وقلب كسير .  
تهنا بين الحوانيت ، وفي يدي قطعة الورق تحمل العنوان ، وقد انمحت بعض الحروف ، لكن أغلب الكلمات واضحة .  
جولنا النراجيل النحاسية ، أطباق الصدف ، تمائم أثرية مقلدة ،

وإلى جوارها خراطيش الملوك بالرسم البيروغليفي .  
سألنا ، وتعبنا ، فضحك سراج ، وقد خرج من إحراج المشوار  
الخائب : لنعتبره طابور ذنب .  
صعدنا عدة درجات ، وأفضى الطريق إلى عتبة رخامية عتيقة ،  
أشار لنا رجل معمم بيده على المكان : عائلة البوطسي .  
وكان بجوار قبة خضراء ، ولوحات حلوة في المدخل . أحذية  
مطبوعة بالجعران المقدس ، وقمصان عليها صورة الطائر حورس ، ثم  
دقات لصناعية في الداخل يكفون الفضة في استدارة الأطباق النحاسية .  
قال سراج بصوت خافت سمعته بصعوبة : لن نجده . . قلت محتجاً :  
سيكون الفشل الثاني على أية حال ١٩  
اتجهت إلى مدخل الدكان ، وألقيت نظرة على الداخل . كان  
الضوء شحيحاً ، وأكثر من أربعة أفراد منكبون على عملهم في هدوء لا  
تقطعه إلا هذه الطرقات المتتالية .  
ثمة لوح زجاجي شفاف ، طرخته بإصبعي ، ودخلت ملقياً السلام  
، ، ومن خلفي سراج الذي تقطعت أنفاسه من اللف والدوران .  
قبل أن أسأل عن البوسطي ، لمحت في طرف قصي ، يطرق  
بشاكوش صغير ، وقطعة حديد معقوفة طبقه الفضي ، وقد استولى عليه  
حرص بالغ لتجويد الصنعة ، فلم يشعر بنا .  
تسحبت على أطراف بيادتي ، واقتربت منه ، رأيت إيزيس تحمل  
طفلها الإلهي ( حورس ) ، وفي الفضاء الروح ( يا ) تحلق في صورة طائر ،  
أما القرين ( كا ) فيتمدد في مقدمة اللوحة .  
كان الطريق يرج داخلي ، ويد سراج تلكنني أن أتكلم ، أن  
أقي السلام على صديقنا المشترك : العسكري بوسطي .  
هو الذي رأنا ، حملق فينا كالمأخوذ ، رفع قلمه الحديدي المعقوف  
عن المجرى . وقام يحتضننا ، رأيت الفوطة على صدره مثلما يفعل  
الأسطوانات في مدينتنا .  
قال والفرحة ترجمه : حمداً لله على سلامتكم .  
وانطلق ليحضر لنا أكواب التمر هندي الساقعة . جلس إلى جوارنا

على مقاعد خوصية واطئة : خطوة عزيزة .  
كبر العسكري بوطسي في نظري ، ولمحت ( عنخ ) رمز الحياة  
الأبدية خلف رأسه مباشرة .  
خرج صوتي متقطعاً : قلنا أن نترك . هل نعطلك ؟  
ريت على كتفي وأقسم أن يكون غذاؤنا عنده .  
اعتذر سراج ، فقطبت جبيني وهددته : هل أخبره بزيارة الصباح ؟  
رفع يده مستسلماً . وبعد شرب المتج ، انكب البوطسي على عمله  
، بعد أن أشعل عودين من بخور الجاوي .  
فشعرت أنني في معبد فرعوني داخله بعض الأسطوانات ، وثلاثة  
عساكر من الأخصائي !!!

## شمال . . يمين

كان الولد عبد المعطي ضاحي مصاباً بالتهاب اللوزتين منذ زمن طويل، لهذا كانت تتناوبه الحمى في فترات متباعدة ، وما يلبث أن يخف ويشفى .

لكن بطرس رأى أن يفتنم الفرصة هذه المرة فيصحبه إلى المستشفى ، كي يتمتع البصر برؤية البنات الجميلات أثناء العرض على الطبيب الميري .

خلع عبد المعطي سترته بعد أن تمدد على السرير الحديدي ذي العجل ، والملاصق للحائط الأبيض بياض اللبن الحليب. وضع الطبيب سماعته على الجزء الأيسر من الصدر ، ملاصقاً الثدي الضامر بحلمته المصبوسة . ونقر بأصبعه على العظام .

كح بطرس وهو يتابع أصابع الطبيب المدربة ، وقال في سره : الموضوع دخل في الجد .

أنام الطبيب مريضه على بطنه ، وطلب منه أن يأخذ وضع القرفصاء ، ثم أمره أن يأخذ شهيقاً طويلاً ثم يخرججه على دفعات وأن يقول : آه .

فعل عبد المعطي كل ما طلبه منه الطبيب ، الذي تعجب من دخوله الخدمة رغم العيب الواضح في أهم مضخة بالصدر : القلب .

كانت الالتهابات المتوالية للوزتين ، بإفرازاتها الصديدية قد أثرت على القلب ، فضاقت صماماه . شعر بطرس بالعرق يتقصد على جبين زميله الذي رافقه إلى المستشفى ، وظن الأمر نزهة ، وساعة حظ لا تعوض ، فإذا بها تتقلب غماً .

فقد رأى الطبيب أن يحجز عبد المعطي للفحوص والعرض على الإخصائي الزائر كل ثلاثة . ووقع على الأورنيك بالحجز . ودفع بالورقة

الصغيرة بحجم الكف لبطرس الذي كان عليه أن يعود بمفرده .  
قبل أن ينصرف ، مال على أذن زميله : أتريد نقوداً ؟  
هز المحتجز رأسه بالإيجاب ، فـدس السائل جنيهين في اليد الممدودة  
ترتجف . وقبل أن يمضي خارج عنبر الحميات ، احتضنه سريعاً ، وشعر  
بسخونة أطرافه وجبهته .  
كان على بطرس أن يمضي ساعتين أو أكثر في شوارع المعادي ،  
ولم تكن معه نقود كافية ، ولا مزاج رائق للفرجة على خلق الله .  
بالصدفة ، وقعت عيناه على البوطسي يمرق من أمام مقهى فقير  
كان يجلس على أحد مقاعده ، ناداه بصوت عال ، فلم يلتفت . فز من  
مجلسه ، وراح يعدو حتى لحق به : يابوطسي . . . عبد المعطي تم حجزه في  
المستشفى .  
التفت الآخر نحوه . كان له نفس الوجه ، لكن العينين المحملتين  
ليست بنفس الصفاء الذي يعرفه .  
لا يعرف لماذا أخرج من جيب بنطاله علبة سجائره ، وأعطاه واحدة ،  
ربما ظن أنها حيلة منه للحصول على شيء .  
لكنه ليس شحاذاً ، ولم يمد يده يوماً مهماً كان الأمر صعباً .  
دعك بيده السيجارة ، فأنفرت حبات التبغ على الأرض الأسفلتية .  
وعاد إلى مقعده الواطئ ، وأدار صاحب المقهى مؤشر الراديو على محطة  
تذيع أغنية يحبها .  
كان عبد الوهاب يعدل طريوشه - هكذا تصور الأمر - وهو يغني  
: " يا واپور قولي ، رايح على فين ؟ "  
فراح يغني معه ، وخرجت أسراب البنات ضاحكات ، منطلقات  
وكانهن لا يعرفن الحزن أبداً .  
فكر في أن هؤلاء البنات ، سيتزوجن ، وسينجبن أطفالاً : بنات  
وينين ، البنون سيدخلون الجيش ، وبعد عمر طويل ، سيجلسون جلسته .  
شارد الذهن ، صامت ، تضيق عيناه بتأمل الفضاء الذي أخذ لونا  
رصاصياً . لم يكن عبد المعطي ضاحي صديقه القريب إلى قلبه ، لكن  
مصادفة ما ، ورغبة في الخروج من القشلاق جعلته يصاحبه إلى

المستشفى، وبدلاً من أن يعود معه ، يعود فقط بقطعة من الورق عليها اسمه ، ورتبته ، ورقمه العسكري .  
سيرتاح عبد المعطي ضاحي من "شمال يمين" التي تعصف بالأرواح، فتثير الضيق لرتابتها في طوابير الصباح .  
وقع نظره على البيادة بحجمها الكبير ، بفضافة دورانها المميت ، وقسوة جلدها . وسأل نفسه : هل كان هو البوطسي حقاً ؟  
مد يده لكوب الشاي فأبصر جلده الذي دبغته شمس لا ترحم .  
ورأى أن العنبر الذي سكن فيه زميله أفضل مائة مرة من خيام وملاجئ القشلاق .

صحيح أن رائحة "اليزول" ما زالت في أنفه ، لكن كل مريض عليه أن يتعود الروائح الجديدة ، والألوان المختلفة ، وشعر بصوت الوصول يردد "شمال يمين" ، فهب واقفاً ، كالمللوع ، وسرعان ما أدرك أن سحابة حزن عابرة هي التي أوقعتة في المحذور ، وأرهقت عقله .  
فأسراب البنات لا تتقطع عن المرور من أمامه . كلهن فتيات جميلات ، بالشعر المعقوص أو ذيل الحصان ، وكل طراوة الدنيا ، وروعته تظهر في ابتسامتهن المرحية .  
وما لبثت مدرسة الصغار أن فتحت أبوابها ، وحدثت جلبة مع الأقدام الصغيرة المتدافعة التي تسابق العفار ، كأن عصافير ملونة انطلقت من أقفاصها .

شعر بأن الحبس أمر مهين للبشر ، وكاد يبكي وهو يستسلم لصوت غامض يغزو وحدته : "شمال يمين" ، لم يكن هناك مفر من أن ينظر إلى ساعته ، ويدفع بالحساب إلى صاحب المقهى العجوز الذي عاد يفتش في الراديو عن أغنية أخرى . كالمنوم ، جر قدميه في اتجاه المحطة ، تعلق بصره بالسماة التي كانت تجاهد لتتخلص من السحب الرمادية فيخلص لها الأزرق لوناً ورحابة .

"شمال يمين" ، تترى كسوط يعذبه ، ولم يجد بطرس مفرأ من أن يصعد إلى الأتوبيس المار بالقشلاق ، ليعود وحده ، كي يواصل مشواره الصعب مع زملاء قدر لهم أن يحملوا في قلوبهم ثقل السماوات الرصاصية !



## القسم الثالث

### تأملات شاردة عن الجبهة



## فرد يمام

لا أحد رأى يمامة في الصحراء . لا أحد رآها من قبل أو من بعد في هذا المكان المقطوع الموحش ، المليء بالأحجار المتناثرة دون ترتيب أو نظام ، والعشب القزمي من فصائل الصبار . هبطت دون سابق إنذار على ماسورة مدفع الم / ط ، ما كادت أصابعها الدقيقة تلمس الحديد الساخن حتى طارت من جديد ، راحت تضرب الفضاء القريب بجناحين مجهدين ، ثم سقطت في حفرة الموقع التبادلي لنفس الطراز من المدفع . يمامة في الموقع ، حادث فريد ، خاصة في ساعة القيلولة حيث يخلد الجميع إلى الراحة ما عدا أفراد النوبتجية . في ذات اللحظة اندفع العساكر نحو الحفرة ، صنعوا من أجسادهم شبكة ترتطم بها المسكينة في محاولتها المستميتة للفرار . رفرفة الجناحين أسقط ريش ناعم كثير ، بلون أبيض يميل إلى البني . ريش يدور في قلب دوامات الريح المثقلة بذرات الرمل الأصفر الساخن . نجح العسكري حلمي في القبض على اليمامة ، رحنا نتأملها صامتين وهي تتلفت في حيرة يمنية ويسرة ، وكأنها أدركت الفخ الذي وقعت فيه ، ثم ما لبثت أن استكانت ، وأغلقت الجفنين في استسلام أثس . كلنا ، رغم مشاركتنا في المطاردة المستحيلة منذ لحظات ، وقفنا

في مأزق ، عبر عنه العسكري عبد الحي ياقوت ، وهو يتساءل في مرارة :  
ماذا سنفعل بها ؟

كانت دوامات الغبار تتصاعد لتحيط بالجمع الذي خرج من  
الحفرة في اتجاه أرض السرية .

قال حلمي ، وهو يمارس عناده المعروف عنه : هي لي . وأنا صاحب  
التصرف !

مط الجميع شفثيه ، وتحركت اليمامة حركة يائسة ، فسقط  
مزيداً من الريش القصير ، وبان الزغب الخفيف حول سمانة القدم فيما  
صرخ العسكري متولي : إنها عطشى .

أسرعنا إلى الملاجئ في نفس اللحظة وقد أحضر كل منا زمزميته  
، وأمالها ، وصب الماء القليل في الغطاء المستدير .

اقترب عبد الحي ياقوت من حلمي ، وراح يمسد شعرها بالماء البارد  
الذي ملأ به قبضته .

انتفضت اليمامة وقطرات الماء تغمرها ، وتصل إلى منابت الزغب  
حول عنقها الجميل . وما لبث أن هدأت . أغمضت العينين للحظة ،  
وكانها في مرحلة الإفاقة ، راحت تنفض ريشها المبلول ، في انتعاش  
حقيقي وسط صهد لا يرحم .

حملها ياقوت في حنان بالغ ، فرد المشمع على أرضية الملجأ ، ثم  
أراحها . صاح حلمي غاضباً : احترس . ستطير .

لكنها استكانت ، وراحت تنفث ريشها ، وتطويه ، في حركات  
متعاقبة .

سأل العسكري متولي : حد عنده ذرة عويجة ؟

ضربه مرسى الشحط ، أطول أفراد السرية طولاً ، والذي اختفى  
لقبه الحقيقي وراء اسمه الحركي ، شخط فيه : يا غبي .

جرى إلى ملجأه ، وعاد بقطعة خبز من جرابه الصباح ، راح يبللها  
بحرص زائد ، حتى امتصت الماء ، وانتفشنت . قربها من اليمامة التي  
غمست منقارها فيه ، ثم عافت الطعام .

دخل صبري المنير الملجأ بعد انتهاء نوبته ، قال : إن التعيين في

الطريق . لقد رأيت السيارة قادمة على المدق الجيري القديم .  
صحننا في نفس واحد : حلو . وقال العسكري حلمي : ممنوع فعل  
أي شيء إلا بأمرى .  
سألته : ماذا تقصد ؟

رد بعنجهية : اليمامة ملكي . وأنا الذي أطعمها وأسقيها .  
خبطه عبد الحي ياقوت على كتفه ، حتى كاد يسقطه : أصمت يا  
جاهل . هذه روح . والروح ملك ربنا .  
مصمصت الشفاه . كنا جميعاً ، ودون اتفاق بيننا نخشى أن تموت  
في هذا الهجير . ولم نكن على يقين من صحة ما فعلناه ، حين طاردناها  
ساعة سقوطها في الموقع .

جاءت العربية تنهأ ، سمعنا صوت الصول الأجش : إحضر للتعين  
. رأينا العفار الذي يسبق السيارة ، وقف حكمدارية الجماعات بأروانات  
السرايا . وسألنا عن التعيين في صوت مجهود ، وعرفنا أن هناك أرز ،  
ويمك ، وقطع صغيرة من اللحم . أما الفاكهة ، فبيانها كالآتي : كل  
خمسة أفراد يخصصهم حبة واحدة من البرتقال .  
تم توزع التعيين بسرعة فائقة ، وتصاعدت الأبخرة الشهية ،  
وتلمظت الألسنة ، ورطبت الشفاه ، وصنعنا داخل الملجأ حلقة الغداء  
المعهودة .

كنا جوعى كما لم يحدث لنا من قبل . إلا أن أيدينا لم تمتد  
لطعام قبل أن نطمئن على غذاء اليمامة . كانت ترقد هادئة كأنها مثنا  
في نوبة راحة .

كل يمسد شعرها الناعم الجميل ، فتسري في روحه نسائم منعشة  
، وهي من وقت لآخر تفتح العينين الجميلتين لتطمئن على شيء ضائع أو  
مفقود .

مد العسكري متولي يده ببعض حبيبات الأرز ، لكنها نفرت ،  
وابتعدت بجسمها . اقترب منها عبد الحي ياقوت ، وراح يصنع بضمه هديلاً  
عجيباً ، انتهت للحظة ثم أغمضت عينيها في عزوف واضح عن أي طعام .  
صاح العسكري مرسى الشحط : الصول زعفراني في الطريق .

دون أي اتفاق نهضنا جميعاً ، خرجنا من فم الملجأ ، وأيدينا تحيط  
باليمامة . أطلقناها ، في الجو الصهد اللاهخ . أطلقناها طارت قليلاً ثم  
هوت .

صنعنا بأيدينا مراوح ، رحنا نمسح حبات الرمل عن الجسد المنهك  
، والعفريت عبد الحي ياقوت . كاد يبكي وهو يهمس في صوت ينضح  
بالبكاء : بالله عليك طيري .  
ثم رشف قطرات من الماء ، ويخ رذاذاً للحظات من فمه الواسع :  
طيري .. أمانة عليك .

ارتعش الجسد الساخن في أيدينا ، واستجمعت اليمامة قوتها ،  
نقضت الماء ، وانتفضت ، وحين أطلقها عبد الحي ، طارت هذه المرة  
طيراناً متواصلاً ، ومضت نحو المدينة البعيدة ، فيما لاحظت دموعاً  
تترقرق في أعين العساكر الغلابة .

## شَعْرَة

- العسكري مصيلحي عنده شعرة .  
- لا . ما حدث هو مجرد "لطف" .  
- هذا الولد العاقل ، كيف طلقت دماغه ؟  
هكذا ارتفعت الأصوات وقت الدجى ، فوقفت أهرش رأسي ،  
لأنني أعرف العسكري توفيق مصيلحي أكثر من غيري .  
حكى لي شيئاً عن عائلته الكبيرة في "أبو كبير" ، ومحل  
الجزارة الواسع الذي يمتلكه أبوه - الحاج أحمد - مع عدة مخازن .  
كان أحمر الوجه ، يكاد الدم يتفجر من وجهه البشوش في صحة  
وعافية . في البداية لم أسترح له ، لفكرة راسخة في ذهني عن الجزائريين .  
فدائماً يكونون قساة القلب ، متبلدي المشاعر . لكن موقفاً صغيراً ،  
ربما كان عابراً ، مربنا في إحدى مشاويرنا لإحضار سواتر من قلب  
الكتيبة ، غيرني تماماً .  
كنا ملحقين على سرية الهاون ، وأمرنا الصول درويش أن نسارع  
باستخراج الغلالات من حفرة الذخيرة ، فلما أنجزنا ما طلب . أشار بيده  
وكأنه يطرد حشرات بعيداً عنه ، كي نذهب لنحضر سواتر الصلب  
المقوسة من مركز قيادة الكتيبة على بعد تسعة كيلومترات .  
في البداية سرنا صامتين ، نمسح عرقنا في المناديل الميري الكاكي  
تارة ، وفي أكمام الأفرولات تارة أخرى ، ننفخ بأفواهنا زفيراً حاراً محملاً  
بالتعب والإرهاق .  
فجأة ، ضم أصابع يده اليسرى ، وراح يهزها لأسفل وأعلى في  
هدوء ولطف . ثم مال على جانب الطريق ليحمل جرواً صغيراً كان يبدو  
أنه في الأسابيع الأولى بعد مولده .  
راح يلهو معه ، وينظر حوله في بحث دؤوب عن شيء لم يخبرني به .

ثم ضم شفتيه ، وراح يصدر بقمه صغيراً متقطعاً ، وفي التوقفز كلب كبير ، أسود اللون ، في مفاجأة لي ، وراح ينظر نحو مصيلحي نظرات كلها شك وريبة ، وما لبث أن خفف من نظراته العدائية ، حين لمح يده تتحسس شعر الجرو في حنان فريد . أخذتني المفاجأة حين راح الكلب يتمسح في ساق رفيق رحلتي ، وكأنه يعتذر له عن تسرعه وفهمه الخاطئ . بعد أن ابتعدنا ، سألته عن علاقته بالكلاب ، رد بعفوية : كل الحيوانات أصحابي ، أعرف كيف أتعامل معهم ، أما البشر فالتعامل معهم صعب صعب .

بعد أن تقوسست ظهورنا بالسواتر الصلب حال عودتنا ، توثقت علاقتي به . صرت أعز أصحابه . وانكشفت لي مناطق الدفينة ، فإذا مصيلحي - الجزار بيده الخشنة - أرق أفراد السرية مشاعراً ، حتى أنني كنت أختار سريريه ، لأقرأ خطابات سهير التي ترسلها ، وعلى المظروف الخاتم الأسود المربع بالرقم الكودي ، دون أن أخشى تفرق عيني بالدموع . وهو - ويلمحة ذكاء نادرة - كان يشغل نفسه بتطظيف سلاحه الآلي دون أن يسألني عن سر تلك الدموع .

هل من الممكن لمصيلحي أن يصاب بلوثة جنون ؟ سألت العريف حامد أبو طويلة - وقد غاب عني لقبه الحقيقي - فعرفت أنه خرج من مكتب الملازم يسري ، وجري في الفناء ، فأحضر حجارة " الدبش " وراح يتذفها نحوه . فلما أمسكوا به راح يغني ويرقص أغنية عبد الحليم " بيع قلبك .. بيع ودك شوف الشاري مين ؟ " ثم يتوقف قليلاً ، ليؤدي التحية العسكرية - كما أنزلت - ويعود الهتاف باسم الكتيبة ثم يخرج " زرمة " طويلة بذيل ماجن .

صاح الملازم في غضب : ضعوه في الحبس .

فشخر شجرة مدوية ، قبل أن يرفع يده اليمنى بسلام قائد عظيم متبوعة بهزة وسط لا يمكن أن تكون إلا لراقصة محترفة .

في قشلاق الحبس زرت مصيلحي ، قدمت له علبة سجائر ، وقطعتين من اللبن ، ومشط كبير . نظر إلى الخلاء طويلاً ، زفرو هو يصرخ : أوباش .

قلت له : احترس يا مصيلحي . ولا تمض في الأمر أكثر من هذا .  
شملتني بنظرة عطف ، وربت على كتفي : أوغاد . قلت لك .  
أحمر وجهه أكثر من احمراره العادي . سألته عما حدث ، هنز رأسه ، وهو يتلفت حوله : لا شيء . أريد الجاموسة .  
قلت له في صدق وأنا احتضن يديه : خفف عنك . أحك لي .  
ظل صامتاً ، وما لبث أن سألتني : هل ترضى أن تمسح حذاء إنسان مثلك ؟

قلت له معترضاً : بالطبع لا . لكن عساكر المراسلة يفعلون .  
شخر مرة أخرى : لكن أنا لا .  
همس في أذني ، وأكد لي بإشارة من أصابعه : أنا رجل .  
وضحك في مرارة : شعرة جاءت . ماذا جرى ؟  
قلت أنصحه : الجنون يبدأ من لحظة مثل هذه . أن تضرب في طريق تجهله . حيث يحتل اللامعقول مكان المعقول ، وحين يחדش الضحك قشرة الحزن الصلدة . أرجوك لا تضحك . لا ترقص . أبك . أبك في حضوري . لا تخش شيئاً .  
دقت قبضة العريف المناوب الباب الصاج : هيا ، يا دفعة ١٩ !  
قلت : هي دقائق .  
اندفع مصيلحي يرقص ، وهو يندق على أروانة الفرد الألومنيوم :  
الجاموسة نامت . والعقارب قامت . ثم خطف كتاب كان بيدي ، وصنع منه بوقاً ، وصاح بصوت جهوري :  
حيوا الجاموسة . . هيه . . هيه . . هيه .  
أغلق العريف الباب مرة أخرى ، واستمر مصيلحي في جلبته ، حتى ظننت أنه سيفش على . توقف فجأة ، لمحت صدره تحت السترة الكاكي يعلو ويهبط . أجلسه إلى جوارى على الأرض الرملية الخشنة :  
أرجوك يا مصيلحي . تماسك . كلها ثلاثة أعوام ، وتخرج .  
فوجئت به يهدأ ، ويتملى وجهي . في تلك اللحظة تذكرت أنه لا بد من كلام يقال . ولا أعرف كيف أوجه دفعة الحديث .  
سألته : كان من الممكن أن ترفض بهدوء .

رد بعصبية : أرادته أمراً صريحاً .  
هزرت رأسي : من الممكن أن تتظلم . حاول ١٩  
أدهشني رده : فكّرت في هذا . وأردت أن يكون ردي مدوياً .  
قلت له بإخلاص : عرفت أنك ستذهب بأورنيك العيادة إلى  
المستشفى العسكري .  
رد في ضيق : لا يهم . سأستمر في جنوني .  
طاف بذهني خاطر عجيب ، سألته : هل كنت تذبح المشية بيدك؟  
ثبت عينيه في عيني : مصيلحي لا يذبح أحداً . أبي الحاج أحمد  
حاول معي كثيراً ولم تفلح محاولاته .  
دق العريف الباب بغلظة هذه المرة ، شملني بنظرة ماكّرة : اطلع  
بالمطلوب .  
مددت يدي بسيجارتين . وبجراحة متناهية خطف علبة الكبريت .  
وضحك وهو يغمر بعينه اليسرى : صاحبك شعرته عالية .  
قلت لمصيلحي : لا تخف ، سأذهب معك وقت العرض على  
المستشفى العسكري . سأحدث مع صول السرية الطبية في الأمر .  
في هذه المرة علا صوت مصيلحي - الجزار في بطاقته الشخصية -  
بأغنية جميلة لعبد الحليم حافظ :  
" صافيني مرة ، وجافيني مرة "  
ضحكت وأنا أتركه حليق الرأس ، وبدون طاقيته الميري غمز  
بعينه : مع السلامة !  
علمت بعد ذلك أن المستشفى العسكري قد احتجز مصيلحي  
للعرض على طبيب زائر متخصص في هذا النوع من الأمراض العصبية .  
وقد خضع لفحص سريري دقيق ، وأثبتت التقارير الطبية أنه قد تعرض  
لضغط نفسي عنيف أدى لاختلال بعض وظائف المخ .  
وحينما عاد إلى السرية ، سُمح له بإرتداء حذاء خفيف ومعاينة من  
الطوابير ، لمدة شهر . لكن لا أحد صار يمكنه إيقافه عن الغناء ، "  
والزراط " بقمه وقتما شاء ، حيث أن صوراً من التقارير الطبية ، محفوظة  
بترتيب دقيق داخل حافظته الجلدية .

## عربون محبة

راحت الشاه تمسح خطمها في الحشائش الكثيفة الملاصقة لبئر الماء الوحيد في المنطقة . كانت خيام البدو متاثرة هنا ، وهناك ، والفتيات يأتين إلى البئر للماء أو عيتهن البلاستيكية ، وجرارهن المميزة . وأصبح رزق هو المندوب السامي لسريتنا لهؤلاء البدو ، لقد بدأت المفايضة ببساطة متناهية ، فالجراية الزائدة يمكن مبادلتها بالدحروج ، وهو اسم بيض الدجاج ، وغير ذلك عيب . كذلك فإن قطع الصابون ، وبالأخص صابون الرائحة يثمن غالباً ، ويمكن الحصول في مقابله على " قسط " لبن كامل . البدو في حالهم ، ونحن أيضاً - باستثناء رزق - في حالنا ، شركاء في الماء والكلأ ، ومساحات الأصفر العنيد . نقطة الدفروسوار على بعد ثلاثة كيلو مترات ، والحسرة تنهش الصدور ، حيث لم نتكيف بعد مع المكان . هو يختلف تماماً عن الأساس ، والأخصائي ، تكفي أشجار المانجو بثمارها اللذيذة التي تخضع لقانون نيوتن في الجاذبية الأرضية . لكن " رضا " لها جاذبيتها الخاصة وقد خطفت قلب رزق ، لذلك يصير على أن يملأ الجراكن بمفرده ، ويتحمل السير لأكثر من كيلو متر ، والثقل على كتفه ، من أجل نظرة واحدة ، تظللها رموش تخطف القلب . لقد حظى بثقتهم تماماً ، فقد كان هاشا باشا في المفايضة ، لا يهمل الخسارة البسيطة من أجل بناء جسور ثقة مع العشيرة . وكلما رأت أحدنا خفضت نظراتها ، وأسدت رموشها ، ولم تنبس بكلمة .

وحده رزق هو الذي تحدث معها ، كانت تأنف من مخاطبة العساكر ، لأنهم لا يؤمنون . وقد أكد لها رزق ذلك ، وراح يهز رأسه هزات متتالية من أعلى لأسفل : فاسدون . دون ..

كان التعيين اليوم يحوي مكرونة مقصوصة لم تنضج بعد ، حتى صلصة الطماطم لا يكاد المرء يعثر لها على لون أو رائحة ، لذلك استقر الرأي على مقايضة التعيين كله . وغاب رزق ، وتوجسنا شراً أن تكون المهمة قد فشلت .

لذلك رأينا أن نرسل من يستعجله ، فقد مر الوقت ، وزقزقت عصافير بطوننا ، وكنا قد أشعلنا العيوات المساعدة بعد أن أخفيناها فترة تحت الحشائش اليابسة ، ووضعنا أزوانة الجماعة وقد امتلأت بالماء ، ليغلي ، انتظارا لعودة رزق بالدحروج .

ذهب مفيد يستطلع الأمر ، وتسلسل إلى مضارب العشيرة ، ربما تكون هناك حالة من الرفض لطعام لا يستسيغه البدو . هكذا ظننا الأمر . وعشنا في قلق متزايد غزاه الجوع الكافر .

وعاد مفيد بعد دقائق بوجه محتقن ، سألناه : خير .

أبو طويلة ضرب الأرض بقدميه : ماذا حدث له ؟

ضحك في مرارة : إنه في مأدبة حافلة . يجلس مع النسوة يقضم البصل الأخضر ، وينهش صدر دجاجة مطهية .

تلفتنا حولنا ، وكلنا حيرة : والدحروج ؟

امتقع وجه مفيد أكثر وهو يعترف : اقتريت منه ، وسألته عن طعامنا .

سألناه في صوت واحد هذه الجوع : وماذا قال ؟

مضغ مفيد حسرته : أشاح لي بيده . وهو يواصل التهام الفصوص البيضاء بشهية ونهم . وقال :

اذهب ، سأحضر وراءك .

سأله أبو طويلة : ألم يقل لك تفضل ؟

سرى الغيظ في صوته المبحوح : والله ما قالها . هو يأكل برضا وانشرح . ونحن نموت من الجوع .

قال الصول درويش وهو يتوعده سيكون لنا حساب معه.  
وقبل أن يكمل الصول عبارته ، جاء العسكري رزق بسلة كبيرة  
امتألت بالبيض من كل شكل ولون .  
وقبل أن ندب أصابعنا في عينيه المحملتين ، قال يقطع علينا  
الطريق للومه : اضطررت للأكل معهم . وإلا كان في الرفض عار لا  
يُمحى .  
خبط مفيد كتفه : إلب غيرها .. يا نمس .  
قال يدفع عنه اتهاماً أكيداً : أنتم الذين أرسلتموني . وكل ما  
حصلت عليه نصف دجاجة .  
شقق أبو طويلة كالمعذب : نصف دجاجة .. يا حفيظ .  
ولم يكن هناك وقت للحديث أكثر من هذا ، فقد امتدت أيدينا  
لتضع البيض في الإناء الذي تقطعت مياهه من الغليان .  
كما لم يكن الوقت مناسباً لوجع الدماغ ، وخلص رزق من مهمته  
التي تعود عليها . إلا أنه حين خلا بالصول درويش دس في يده قطعتين من  
اللحم : كبده و قنصة .  
رأينا كل شيء ، فقد كانت رشوة مفضوحة . وقبل أن تغلق قطع  
السنتنا برشوة جماعية : الشاي كشري ، على حسابي لكم جميعاً .  
خرج مفيد عن صمته ، وهو الذي رأى المأدبة ، ولم يدع إليها ،  
خبط على كتفه محتجاً : نحن لا نباع ولا نشترى .  
كانت أشجار المانجو تبدو محترقة من أثر القصف في حرب لم يمر  
عليها عام واحد .  
وكانت رضا قد اقتربت من نطاق السرية وقد حملت شاه صغيرة ،  
قربتها من صدرها ، راحت تثنو ، وهي تهددها . أومأت لرزق أن يأتي ،  
ولم نسمع ما نطق به ، فقد كانت تضع الشال الأزرق على فمها . لكنه  
حمل الشاه ، وعاد بها إلينا . لقد صعدنا بالموقف ، وتجمدنا للحظات ، ثم  
انطلقنا جميعاً ، نرفع رزق فوق الأعناق ونهتف للأسود ابن الطالبية بطول  
العمر . حتى أنه قد خجل ، وراح يتمتم لنفسه بكلمات مبهمه ، فيما  
استعد الجميع للوليمة المعجزة .

## الأعمال بالنيات

في فايد ، علمنا المكان بالفلنكات المترامية بلا نظام على جانبي الطريق . محطة القطار في الجانب الشرقي من الطريق الأسفلتي . تعبر الكووبري الخشبي العتيق ، ثم تواجهك أشجار السيسبان التي تدلي شعورها خجلاً في التربة النحيلة التي لها لون رمادي غريب . إلى الجوار يقبع الكافور ، أشجار عجوزة بعمر الحزن ، كأنها كائنات انقرضت من عصور سحيقة بائدة .

العساكر في كل مكان . اللون الكاكي يسود المحطة والأرصنة ، والأزقة الضيقة ، ويحتل معظم مقاعد القش الواطئة في المقاهي الفقيرة ، التي عجزت عن استيعاب كل هذا الحشد ، فاستعانوا بالجراكن البيضاء بعد أن مالوا ، وملئوا فراغها بقش الأرز .

في المحطة الفقيرة مقعد أو اثان بلا مساند . وجرة ناظر المحطة الرثة ، لها باب خشبي صغير ، مغلق في معظم الأحيان . وفي ظل العواميد ، والسيما فورات ، بعض دجاج ينش التراب ، واليوم جمعة .

فكر عبد العظيم أن يحتسي شاياً ، وأن يقطع الوقت بالنظر في وجوه البنات المتفجرة بالصحة والسعادة الخفية التي لا يوجد لها أي سبب ، سوى الأمل في أيام قادمة أقل مسغبة .

فتيات بملابس محتشمة ، وطوق الصدر مفتوح بحساب حيث الدانتيل العريض تسرب قليلاً من البهجة .

يصر على أن يمتص ثقل الشاي ، ونحن نصفه بأنه شخص دون ،

فيرفع يده معترضاً : حتى الثمالة الأخيرة .

البنات يسرن في دلال ، والعساكر يكتمون مشاعرهم ، ويكتفون بنظرات حذرة ، ويتهاوتون على البنت ( محاسن ) بائعة التين الشوكي ، وهي تنقي الحبة وراء الحبة ، فتقشرها في درية وصنعة . وترفع يدها باللحم اللذيذ الممتلئ بالبذور والعصير الحلو ، وتغني : " خمسة بربع جنيه " .

في اتجاههن إلى السوق تسير البنات ، وأجسادهن التي تخفي رغبات دفينية ، تكتفي بإيماءات سرية ، وترفض عيونهن - في ارتياب مرير - أي محاولة للتسليم بالأمر الواقع . ينزلق عبد العظيم بمقعده العتيق ، وعينه التي تدب فيها رصاصة - اليمنى على الأرجح - ترسل نحو السرب المحطور الاقتراب منه وميضاً قاتلاً .

صلاة الجمعة على الأبواب ، لأن الحصر المطوية في أركان الجامع ، يتم فردها في نظام بديع ، والعساكر لن يقلعوا بياداتهم حتى يعلو صوت المؤذن : قد قامت الصلاة .

لذلك فقد أفتى الزرقاوي أن العساكر مهما فعلوا من خير فهم في الدرك الأسفل من النار .

سمع عبد العظيم الفتوى ، فأشاح بيده معترضاً : ألسنا في نار الجيش ، وهي - والعياذ بالله - مثل نار جهنم ؟

كاد خيري الزرقاوي يطبق عليه يديه فيخنقه ، إلا أن جحوظ عينيه قبل أن يقدم على مشروع الخنق ، جملة يتراجع وهو يؤكد أن أفراد الكتيبة كلهم سيكونون من حشو النار بينما الفرقة الناجية وحدها ستكون على الأرائك .

لم يعترض عبد العظيم هذه المرة على كلام الزرقاوي ، وأخذتها من قصيرها ، وفرد طوله ، وقال له وهو يتمطى : الأعمال بالنيات ! وجدناها . الحلقة المفقودة التي طالما بحثنا عنها في ليل الملاجئ ، وعملة الخدمة الشاقة ، حتى أنني أكملت العبارة في خشوع لا أعرف كيف استولى عليّ : ولكل امرئ ما نوى .

في هذه اللحظة بالضبط ، وقبل أن أضع النقطة الأخيرة على نهاية

جمليتي ، كهسيس صمت في زحمة المكان ، جرى ما يمكن اعتباره  
أمراً من أمور ( الخانكة ) ، وإليك التفاصيل :

كان عبد العظيم يهيم بمنادرة المقهى ، وصوت الواعظ يلعلع في  
مكبر الصوت ، والبنت محاسن هناك لا تكف عن الشغل والنظر في  
عساكر أعينهم زائفة .

فجأة عبرت أمامنا بنت صغيرة تسوق قطعاً من الجاموس ، وفي  
نهاية ذلك القطيع كان الأب يهش الجاموسات النافرات ، والمتكئات .  
غفار يعلو في المكان كله ، فيطوفنا ويزيد إحساسنا بالاختناق .

رأيناها يفز من مجلسه ، ويمضي في أثر القطيع ، وعلى بعد خطوات  
قليلة من الأب الذي راح يحلق يمينه ويسرة على جاموسة شاردة ، راحت  
تقتلع عيدان برسيم من سيارة ركنها سائقها بجوار الطوار الأيمن .

تتبعناه بنظرنا ونحن نتعجب . هذا عبد العظيم الفلاح ابن الفلاح  
لماذا تركنا وذهب وراء القطيع ؟

لم تطل دهشتنا ، فقد أنزل الأب جاموسه ليستحم في التربة ،  
زغرت البنت للعسكري عبد العظيم . وهو يقترب من ثروتها ، ويتأملها في  
وله عجيب .

وسرعان ما خلع سترته ، وفك أربطة البيادة الثقيلة ، وينطلونه  
الميري ، وفأنتله الداخلية ، ونط في التربة ، وهو يغطس ، ويقب ، ثم  
يقترب من جاموسة عظيمة اللحم والشحم ، فيطبع على رقبتها المشدودة  
قبلة حرن في وصفها .

وقف خيرى الزرقاوي ، وقد نفرت عروقه ، وهو يشير للعسكري  
الذي عاد إلى طفولته مرحاً ، يغطس غطسات عجيبة ، نعتد مع طول  
غيابه أنه قد مات وغطس ، قال بصوت متحشرج : الندل . . الفاسق .  
قال له رزق وكان صامتاً طول الوقت : إنك الجاهل هذا شيء لا  
تعرفه .

وصحنا في وجهه معترضين : ثم إن الأعمال بالنيات !

## الدفرسوار

الدفرسوار اسم له رنين عجيب . الحظن الذي تلقاني فور الخروج من فرقة الأخصائي . طوال الطريق إلى موقع قيادة الكتيبة تقابلك دشمة مهذمة ، دبابات معطوبة ، إطارات سيارات عسكرية ، حفر ردمتها رياح أشهر منصرمة ، ثم كمية لا يستهان بها من سجاثر العسكر اليهود ، فقد مروا من هنا . انحنيت لألتقط علبة سجائر ديفتها الشمس ، وحولت زهزمة الغلاف إلى انطفاء منكسر ، وقرأت بالانجليزية : " TIME " . قلت في سري مترجماً : الوقت أو الزمن ، ثم قلبت العلبة لأتأمل الأحرف العبرية المربعة ، وأوجعني قلبي حين رأيت منزل قد تهدم تماماً بالقرب من قرية " أبو عطوة " .

الدفرسوار ، حيث مسطح الأزرق الساطع مع مساحات الخضرة الحنونة ، وما يلبث الأصفر العنيد أن يواجهك ، بكل جبروته وغطرسته . في الدفرسوار ، سيممكنك أن تصبح جندياً كاملاً ، ولن تزحف رمال الموقع في السادسة صباحاً ، سيكون من حقلك أن تتفنن في إيجاد سرير لك مع طاقمك .

وستعثر على من يساعدك ، ويضع بين يديك أول كوب شاي مصنوع بمزاج ، فإن كنت تدخن ، فلك الحق في سيجارة وثانية ، أما الثالثة فبحسابها . فكل شيء هنا يسير في دقة ، بلا عواطف زائدة ، وأيضاً بلا قسوة متعمدة .

هذه قلوب ألاتنها الحرب ، ورققتها الدماء الذكية التي تشربتها

رمال لا تظماً . كنت طيلة عمري أحب الأزرق بدرجاته ، ثم يأتي الأخضر على استحياء ، وأكره الأسود بلا حلود : كنفير موت ، ثوب حداد ، ظلام دامس .

بقية الألوان كانت محايدة . الأصفر لا يمثل لدي أي شيء ، مثله مثل البني والرمادي والرصاصي . لكن أيام الخدمة الأولى جعلتني أضع الأصفر في مرتبة العدو . فيه قسوة لا تحد ، وغطرسة لا يمكن تصورها . الصحراء الخرساء لا يتكيف معها إلا السحالي والحرياء ، والبدو .

لا أشعر بعنصرية من أي نوع ، لكنها لعبة الألوان معي . ولقد نسيت أن أقول بكل ثقة أن الأحمر كان يثير حنقي ، فهو الدم المسكوب ، وهو أيضاً عرف الديك الرومي ، وأوداجه التي تتنفخ بمجرد أن تصدر له صفيراً من فمك ، فينفش ريشه كمروحة ، وتسمعها مدوية : كركر .. كركر .. كركر .

في الدفرسوار ، أشجار مانجو عملاقة ، اللحاء غليظ ، وعليه أسماء عساكر ماتوا ، وآخرين جرحوا ، ومعظم أفراد السرية لهم أسماء بديلة رصعوا بها الجنود . أما أشجار التوت اللذيذ فهي تكتظ بالثمار السوداء ، والحمراء في بذخ لا يمكن وصفه .

آه .. في هذه التبة الصغيرة ، التبة التي تبعد مائتي متراً عن ملجأ طاقمي تم طحن عظام جماعة مشاة ، ودفنت الأشلاء في حفرة عميقة . ونبتت شجرة نبق لم يجرؤ جندي مهما بلغ جنونه أن يأكل منها . كانت حبات النبق تميل إلى الحمرة ، وتسقط بمجرد النضوج ، فيمر عليها العساكر ، يقرأون الفاتحة ، وهم يبتعدون عنها بمسافة كافية .

في أول ليلة من الخدمة سمعت الهمهمات المكتومة ، والصرخات المذبوحة ، كان ثمة ارتطام لأصوات كأنها قادمة من زمن مضى ، والكلمات قد طمسها البلى .

تداخلت في ذاتي ، أحكمت إغلاق الزنط حول أذني ، وأمسكت بسلاحي الآلي . تسرب إلى نفسي شك قاتل في أنني أحلم ، وأني لم أمر بطواير الاصطفاف اليومي . لكن السماء كانت صافية ، والنجوم ترسل أشعتها بتحد لا يوصف . فرصت يدي من العضد . لم أشعر بأي وجع .

دعكت رقبتى بقسوة فتوقفت مع الألم الذي سرى إلى بدني . أسقط في يدي : كنت في الدفرسوار .

قال لنا أقدم أومباشى في السرية : لا تفكروا طويلاً في الراحلين . كل منهم كان مثلنا . له أحزان وأحلام ، أوجاع ومباهج . فلماذا اختارت الشظية يسري وتركتني ؟

تهدجت أنفاسي ، قال بصوت واثق لا أثر فيه للمماحكة : العمر واحد ، والرب واحد .

قلت له بعد يومين من الخدمة : إن أصواتهم تأتي بالليل ، ويلفني الأنين ، ويلفني الشعور بالعجز .

هز رأسه غير مقتنع بكلامي : المحارب مثلي لا يسمع مثل هذه الأصوات !

وفي ليلة خالكة السواد ضرب الوند الحديدي قصبة رجله ، فخرج وهو يشير باتهام أكيد : الولد مرسي ابن الكلب . مات ويريد أن يخوفني

ضمد جرحه ، ورأيت الدم يتسرب من نسيج الشاش في ظلمة الملجأ ، قلت له : أصدقني ؟

زغر لي في تحد : عليك بالخرس .

إنها الدفرسوار ، تبدو بيوتها الطينية القليلة كأنها من عهد سحيقة ، لها شكل المكعبات المتساندة ذات الفتحات شحيحة الضوء . كل البيوت تبيع الجاز والسجائر ، ماكينات الحلاقة ، الحلوة الطحينية ، مثلثات الجبن المطبوخ . لا شيء بالأجل فالخبرة قد علمت الأهالي أن رحيل العساكر أو بقائهم رهين سطر واحد في أمر قتال ، أو إشارة لاسلكية يتم رصدها في جزء من الثانية ، الوحيد الذي كان يبيع بالأجل هو عم عبد السلام . لقد رأى عسر العساكر ، وقرر منذ رأى الشهداء والجرحى أن تكون زكاة تجارته هي تلك المبالغ التي لا يمكنه استردادها . بالقرب من بيته ، الذي هو دكانه كان عساكر من الدفرسوار كلها . يعرفهم بالاسم ، أو الشكل ، أو " الأماره " .

الدفرسوار بطيخها شديد الحلوة ، وفي مرات الجمع ، تتكدس

الحبات الضخمة على هيئة أهرام ، منظمة ، تصبغها الخضرة ، ونقرشة  
الرمال التي تحولت إلى بطعة صفراء دليل النقاوة .

في الدفرسوار ، دفن كل عسكري مؤهله في أقرب حفرة ،  
وعاش ببداية الإنسان الأول . استغنى الجميع عن الملاعق الألومنيوم ،  
وعدنا لحفن الأرز المطهي بالأصابع المضمومة . واستحم أغلبنا في العراء ،  
مع ساتر لا يحجب شيئاً صنعه ضلع الهايك .

في الدفرسوار كنا نتتبع طيور النورس ، وهي تصدر صوتاً حزيناً ،  
كأنه نواح متقطع ، ثم يحط بعضها على شجرة النبق ، لتمسح مناقيرها  
في أوراقها ، وتواصل الطيران بهيكل مائل ، ونظرة مليئة بالشجن ، في  
اتجاه دائم نحو الشمال ، حيث الأزرق الفسيح .

## سراييوم

بمشاعر غامضة ركبت السيارة " الزل " ، وإلى جوارى فريد  
الزواوي ، في المقعد الخلفي ، ومعه رزق ، الصمت يلفنا في طريقنا إلى  
السرية الطبية بسراييوم .

يبدو أن الاسم فرعوني ، ولما كانت الظهيرة رحت أتأمل الملامح  
البائسة ، والوجوه المصوفة لفلاحين يعملون في الهجير ، أو يجلسون  
بكسل معتاد على الجسور ..

يزوم محرك السيارة ، فتترقب أرواحنا ، دون أن يرفع فلاح واحد  
رأسه بالنظر أو التحية . حركة السيارات على المدقات ليل نهار ، وأرتال  
المجنزرات أفقدت الناس فضولهم .

خلق طيبون ، بنفس الجلايب الواسعة ، وطاقيّة الشعر من وبر  
الخروف . فيما يبدو أن المعارك كانت محتدمة في هذا القطاع ، إذ أن  
فتايليس البترول بدت محترقة ، إضافة إلى خزانات المياه التي تداعت بعد  
أن دُكت قوائمها .

إلى سراييوم ، ورزق يكتّم بيسراه سريان الدم ، والجرح المفتوح  
يختفي وراء أريطة مزقتها أيدي عجل ، وعينا الزواوي شاخصة إلى البعيد

همس في أذني : " نفسي في عنب بناتي " ١

تظاهرت بأن صوت المحرك قد بدد كلامه في الضجيج ، إلا أنه

لكزني ، وأعادها بعنف . والتقط رزق العبارة : " عنب بناتي " ٩  
كان يقلب اللفظين على وجهيهما ، وتكاد الدهشة تطفّر من  
عينين متعبتين : حاضر .

بالتأكيد ، أغارت طائرات العدو على طرق النقل التي كانت  
تسير عليها قوافل الإمداد ؛ فيها كل العربات المحترقة لم تنزل في  
المنحنيات . والعرق الذي يتقصد على الجبهة ، والوجنتين ، وانحناءات  
العنق يعيدنا إلى اللحظة . وقع فريد الزواوي على قاعدة المدفع ، ومال  
المسد ، في لمح البصر رأينا الدم غزيراً . تبه كل من في الموقع إلى خطورة  
الجرح ، وسرعان ما أعد الصول أورنيك عيادة ، وقعه على الفور رئيس  
العمليات ، وتطوع رزق للقيام بالمأمورية معي .

عند مدخل القرية أبطأت السيارة ، ولحنا عربة فاكية على إحدى  
النواصي ، وقد أسندها صاحبها على جدار متهدم . زم الزواوي شفثيه ،  
وأشار بيده إلى الصناديق المرسومة . قلت أطمأنه : في العودة .

كشف الأربطة عن الجرح العميق ، فأعادها رزق بغضب : أمجنون

أنت ! !

رد الزواوي ، أنه يعرف أن الإصابة خطيرة ، وقد يروح فيها ، لذلك  
استعطفنا أن نشترى العنب ، وشدد على أن يكون العنب بناتي !  
خبطت بيدي على سقف الكابينة ، أوقف مختار السائق السيارة  
متسائلاً : أيه ٩٩

قلت : دقيقة واحدة . قفزت إلى الأرض المترية ، ذهبت إلى بائع  
الفاكية . قبل أن أسأله عن الثمن ، راح ينفذ العناقيد بمشنة من  
الخوص ، والذباب الذي كان راقداً في هدوء ، هاج ولف ، ودار ، ثم حط  
من جديد على الصناديق .

رحت آتخس ما معي من نقود : نصف كيلو .

سمعتي رزق ، فتذف لي قطعة نقود فضية ، سمعت رنينها ، وهي  
ترتطم بالأرض : اشتر كيلو .

أكمل الزواوي : عنب بناتي .

من عمق سحيق ، رأيت تلك الحادثة بتفاصيلها الدقيقة ، كنت

طفلاً أرتمش من الحمى ، وأبكي من الخوف ، أقول لأمي : أريد عنباً .  
إنها تداعيات الموقف الصعب . لكن المدق الجيري ، وخلفه الطريق  
الزجاج أعادني إلى سراييوم . خفت أن أكون قد تأخرت ، عدت إلى  
أقرب زير ، وغسلت العناقيد ، ثم مدت يدي لرزق الذي تناول القرطاس  
المبلول . صعدت بصعوبة لأن الشمس كانت في عيني ، تبخ نارها . ولم  
يكن معي أي منديل فمسحت عرقى الفزير في أكمام السترة .  
أحسست أن جسده يتصلب ، ورغم أنه الخافت ، فقد امتدت يده  
، تتناول حبات العنب .

زفر ، والعربة تتخبط في مطبات الطريق ، وكانت الحفر مملوءة  
بالأعشاب الجافة الصفراء . ونحن نواصل رحلتنا القسرية إلى السرية  
الطبية التي لاحظت لنا على بعد ، مهدمة هي الأخرى ، وبين أشجار وارفة .  
عرفناها بالعلم الأبيض الذي يرفرف مع حركة الهواء ، تطويه الرياح  
فيبدو الهلال قطعاً حمراء صغيرة من دماء الجرحى والشهداء .  
نزلنا ونحن نضغط الأربطة بقوة ، وقابلنا طبيب شاب في حجرة  
الاستقبال ، أخذ الأورنيك ، وسألنا عن فصيلة دم الزواوي الذي يبدو أن  
الغيبوبة أخذته للحظة ، فقد أجاب على الطبيب بنفاذ صبر : ع . . . ن . . ب .  
.. بناتي .

أسقط في يدنا ، واضطربنا إلى حمله ، ووضعته على النقالة ذات  
العجل . دفن المصاب وجهه في ملء بيضاء وضعوها على جسده ، وطلب  
من رزق أن يحتفظ بقرطاس العنب .

كانت رائحة البنج النفاذة تصل إلى أنوفنا ، وتدفعنا إلى القىء ،  
قال الطبيب بهدوء بعد أن كشف على الزواوي :

عملية بسيطة . ابقوا في الخارج . خمسة عشر غرزة تقريباً .  
أخذنا مختار إلى " غرزة " بجوار ترعة تسبح فيها أسراب البط ،  
أخرج من عبه حق المعسل ، ودفعه للمجوز ، الذي جاء له بثلاثة أكواب  
من الشاي المعتبر ، ونرجيلة طرفها من القاب ، وراح يحرك الفحم بالماشية .  
شاركنا الرجل جلستا : خير . . يا شباب .  
قال مختار بحزن حاول إخفاؤه : زميلنا الزواوي . . جرحه صعب .

خبط بيده على المنضد الخوص : ياه .. السرية الطبية شافت جرحى  
وشهداء بالآلاف لا  
ضحك ، كأنه يطرد خاطراً شريعاً : سراييوم يا أولاد أكلت  
الجعضيض ا  
هبت ذرات الرمال ، وراحت الشمس تغوص رويداً رويداً باتجاه  
الغرب ، حدقت في الوجه العجوز ، وتجاعيد السنين ، والغضون العميقة .  
سألته : ماذا تعني سراييوم ؟  
تأملني لحظات قبل أن يربت على كتفي : يا ولدي نحن فراعنة .  
جائز فيه عرق عريي ، وعرق نصراني ، وعرق عثمانلي . لكن  
البذرة فرعوني . اتسعت ضحكته وهو يفكك الكلمة : سراب .. يوم .  
شهق وهو يغمز لي ، وللأصحاب : سراب العمر كله . لكنهم  
يحرّفون ا

## صيد العصاري

يفتح العساكر أعينهم كل صباح على ذؤوبيات الأشجار تخفي  
ميساحات واسعة من الأزرق الفسيح ، شقشقة العصافير ، وهي تغزل من  
الضوء لحناً فرحاً . صوت الشيخ محمد رفعت يأتي واهناً من داخل ملجأ  
قادة السرية . ننصت لتفريد كناري وحيد يمضي باتجاه الغرب ، أما  
الشرق الذي يحفه طريق المعاهدة الأسفلتي فهناك القناة ذات الزرقة القانية  
، يتدرج اللون كلما أوغلت في العمق .

يتهدد العساكر بحرارة مع طلوع صبح جديد ، والكل يقول في  
سره : " يا فتاح يا عليم " . لا أحد يمكنه أن يكمل الجملة الأثيرة : " يا  
رزاق يا كريم " فلا رزق في الجيش ولا يحزنون .

وطأة الحر الخانق لم تبدأ بعد ، كل شيء يكون في صفاء عبر  
الساعات الأولى لكأن الكون يتشكل من جديد . حتى البيادات الثقيلة  
ما زالت تحت أضلع الصاج ، وبداخلها الجوارب التي أثقلها الرمل الناعم  
خلال يوم فات .

في الصعود إلى نقطة مراقبة السرية تبدو السيارات صغيرة كعلب  
كبريت تتحرك ببطء ، والدخان يصعد من الشكمانات الصفحية .  
ما أبهج أن يغسل الإنسان وجهه بماء جار . هذا ما دار في ذهن  
العسكري ياسين ، ونفذه على الفور .

رأيته بنفسه يندفع إلى التبة ، ويتدحرج بصعوبة هابطاً نحو  
الأسفلت . لم تعترضه سوى أشجار قزمية ، وحشائش برية نبتت كيفما

اتفق ، لكنه تفادى كل العوائق . قطع الطريق الأسفلتي ، وانحدر إلى صفحة القناة . كنت أرقبه ، وقد صار نقطة من الكاكي تتحرك يمنة ويسرة ثم تستقر على الشاطئ .

كأنني به يستحضر وجوه كل من غابوا ، على البعد ، هناك ، وطواهم النسيان . ثمة طيور بحرية تسقط على صفحة الماء ، وتلونها بالأبيض .

أفقى بالقرب من المياه التي طالما شاهدها على البعد . هي له الآن . يمكنه أن يغسل وجهه بفيضه الباذخ .

لكن ياسين غمر رأسه ، وراح ينفذه باستمتاع غريب . أخرجت مندبلي الكاكي ولوّحت به ، لم يرني . جاء حامد ولوح له بذراعيه ، التفت صدفة فرأى تلويحنا . رفع ذراعه ، ثم حفن بكفيه بعض الماء وراح يرشه باتجاهنا . كان يفصلنا حوالي كيلو مترين . لكن طراوة الماء ، ونداوة الصباح أشعرتنا بالبلبل .

حين عاد العسكري ياسين مهرولاً ، كنا قد ارتدنا الزي كاملاً ، وحلقنا ذقوننا ، وكان شعره المبلل يشعرونا بالرغبة في أن نغامر مثله ، ونفعل فعلته .

في فترة الراحة بعد تمام طابور السرية اتفقنا أن نصطاد سمكاً من القناة بأي وسيلة . نجح رزق في أن يحصل على تصريح ثمان ساعات لشراء بطارية سائلة لسيارة الحملة .

عاد ، وقد أخفى عدة قصبات من الغاب ، وفي كيس داخل السترة كانت قطع الرصاص ، والهل المسنون ، وخيوط الغزل المتينة .

كان لا بد أن نخفي الأمر عن الصول درويش ، فقور راحة ما بعد الغذاء أنزلنا ضلع الهايك المموه ، وبدأنا في إعداد أكثر من سنارة .

كل مرة نثبت الرصاص ينزلق نحو الלב ، جاء الزواوي وكان جرحه ما يزال طرياً لم يندمل ، عض بضروسه قطعة الرصاص في مكانها المناسب فأمسكت بالغزل .

أخفينا جسم الجريمة بمعازاة أضلع الصاج ، وأعدنا كشف فم الملجأ ، وكان التجويف لا يسعه فرحنا الهائل بيوم الصيد .

اتفقنا أن نشوي الأسماك التي نصطادها ، ونجعلها " عزومة " لا  
تُشى ، ورحنا نحلم بالبورى والقاروص والبياض .  
نسترفرحتنا بالصمت على غير العادة ، ونقوم كل لحظة لننشر  
ثياب غسلناها ، وعلقناها على سفح التبة القريب ، ملأت رثتي بهواء عليل  
شعرت أنه محمل بيهود القناة ، كانت ثمة طائفة ورقية تترنح خلفنا ، في  
الجزء المدني الذي لم يعد أهله من التهجير بعد . تأملنا الشمس وهي  
تتحدّر في لطف وهدوء لا طاقة لنا به .  
حين لامس عامود التشين وتد حفرة الذخيرة ، تسللنا واحد واحداً  
، بكل حذر ، وعانينا من الدرجة اللعينة التي تركنا لها أجسادنا ،  
حتى لا نصاب بسوء .  
في أسفل التبة ، تلمسنا الجروح والرضوض ، وتسليخات المرفقين ،  
لم تكن هناك خسائر يؤية لها .  
صرنا في مواجهة الأزرق الجميل ، ماء له رونق بهي ، كأنه يشفق  
ممتناً بحضورنا . أخذنا وضع القرفصاء ، وضعنا " الطعم " ، ثم دلينا  
السنارات .  
هب هواء منعش غسل أحزاننا ، فسرت في أبداننا سعادة غامرة ،  
وطفعت وجوهنا بالبشر . كانت المياه فاتنة ، تمس أرواحنا بنغمات  
ساحرة .  
اصطاد ياسين ثلاث سمكات ، وحامد أبو طويلة سمكتين ،  
بصعوبة بالغة اصطدت سمكة لا بأس بها ، ورحت أحسس الزعانف ،  
نجح رزق في اصطيد سبع سمكات ، فقد كان يخمش جسد السمكة  
بلهب كبيراً اصطفاه لنفسه . قلنا " وجبة " لا بأس بها . لكن الرزق يحب  
الخفية . وأردنا المزيد .  
في لحظة صادمة ، هبط جنود المشاة بالسرية الثالثة ، أشاروا لنا  
بالابتعاد . نفذنا الأمر باحتجاج مكتوم .  
قذف صول محتقن الوجه بإصبعي ديناميت ، سمعنا الانفجار  
المكتوم ، وأصاب رشاش الماء وجوهنا ، ورأينا السمك يطفو ممزقاً على  
سطح الماء الذي اصطليح بالأحمر .

بدأوا في جمع السمك المغدور ، وانصرفوا بنفس السرعة المبالغية .  
الجمعتا المفاجأة . لم ينبس أحدهما بحرف .  
قمنا من المكان نجر أرجلنا ، وقد شعرنا بالأسى يلقنا حين وصلنا  
إلى أرض السرية ، لم تكن معنا سنارات ، ولا حتى السمك الذي  
اصطدناه . ولما عضنا الجوع ، أخرجنا الجراية نأكلها بفعل لا يمكن  
وصفه ، بدون أي غموس !!

فهرست

بروجي للتحية ٩/

القسم الأول : بعض ما جرى في الأساس/ ١١

قايش وسط/ ١٣

يوم الرقص/ ١٧

الظلم/ ٢٠

التزحيف/ ٢٤

ياقات حمراء/ ٢٨

أربعة شرائط سوداء/ ٣٣

الهدف/ ٣٦

القسم الثاني : نظرة على حكايات الإخصائي/ ٣٩

البنسات/ ٤١

حرامي الحلة/ ٤٦

خنافس/ ٥٠

شربة ماء/ ٥٣

مراة/ ٥٦

زيارة/ ٥٩

شمال... يمين/ ٦٣

القسم الثالث : تاملات شاردة عن الجبهة/ ٦٧

فرد يمام/ ٦٩

شغرة/ ٧٣

عربون محبة/ ٧٧

الأعمال بالنيات/ ٨٠

الدفرسوار/ ٨٣

سرابيوم/ ٨٧

صيد العصاري/ ٩١

## صدر للكاتب

### ❖ الشعر :-

- الخيول، مديرية الثقافة بدمياط، سبتمبر ١٩٨٢ .
- ندهة من ريحة زمان، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١ .
- ريحة الحنة ، مديرية الثقافة بدمياط ، ١٩٩٨ .
- نتهجى الوطن في النور، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، أبريل ٢٠٠٠ .
- سجادة الروح، إقليم شرق الدلتا الثقافي، مايو ٢٠٠٠ .

### ❖ الرواية :-

- رجال وشظايا ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٠ .
- ظل الحجرة ، مركز الحضارة العربية ، أغسطس ٢٠٠١ .

### ❖ القصة القصيرة :-

- خوذة ونورس وحيد ، دار سما ، أبريل ٢٠٠١ .
- كيف يحارب الجندي بلا خوذة ؟ ، المجلس الأعلى للثقافة ، سبتمبر ٢٠٠١ .
- أرجوحة ، مركز الحضارة العربية ، نوفمبر ٢٠٠١ .
- انتصاف ليل مدينة ، اتحاد الكتاب ، عدد ٤٦ ، يونيو ٢٠٠٢ .

### ❖ دراسات ومراجعات :-

- انكسارات القلب الأخضر. مختارات الروائي عبد العزيز مشري .
- سلسلة آفاق عربية ، العدد ٥٦ ، مايو ٢٠٠٣ .

#### ❖ أدب الطفل :

- الحكيم وحماره ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٩ .
- بستان فنون ، كتاب قطر الندى ، العدد ١٣ ، يوليو ٢٠٠٦ .

#### ❖ حوارات صحفية :-

- مواجهات ، مديرية الثقافة بدمياط ، مارس ٢٠٠٠ .
- تقاطعات ثقافية ، مديرية الثقافة بدمياط ، مايو ٢٠٠١ .

#### ❖ تحت الطبع :

- صندل أحمر . مجموعة قصصية .
- دفتر أحوال . مجموعة قصصية .
- الزلنطحي . مجموعة قصصية .
- وميض تلك الجبهة . رواية .
- هذا كل ما أشتهي . ديوان شعر .
- أنا أحب الفول النابت . تأملات ثقافية واجتماعية .

البريد الإلكتروني

E \_ mail :

**Samir\_feel@yahoo.cccccom**

**Samir\_feel@hotmail.com**

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٧/٧٢٢٦